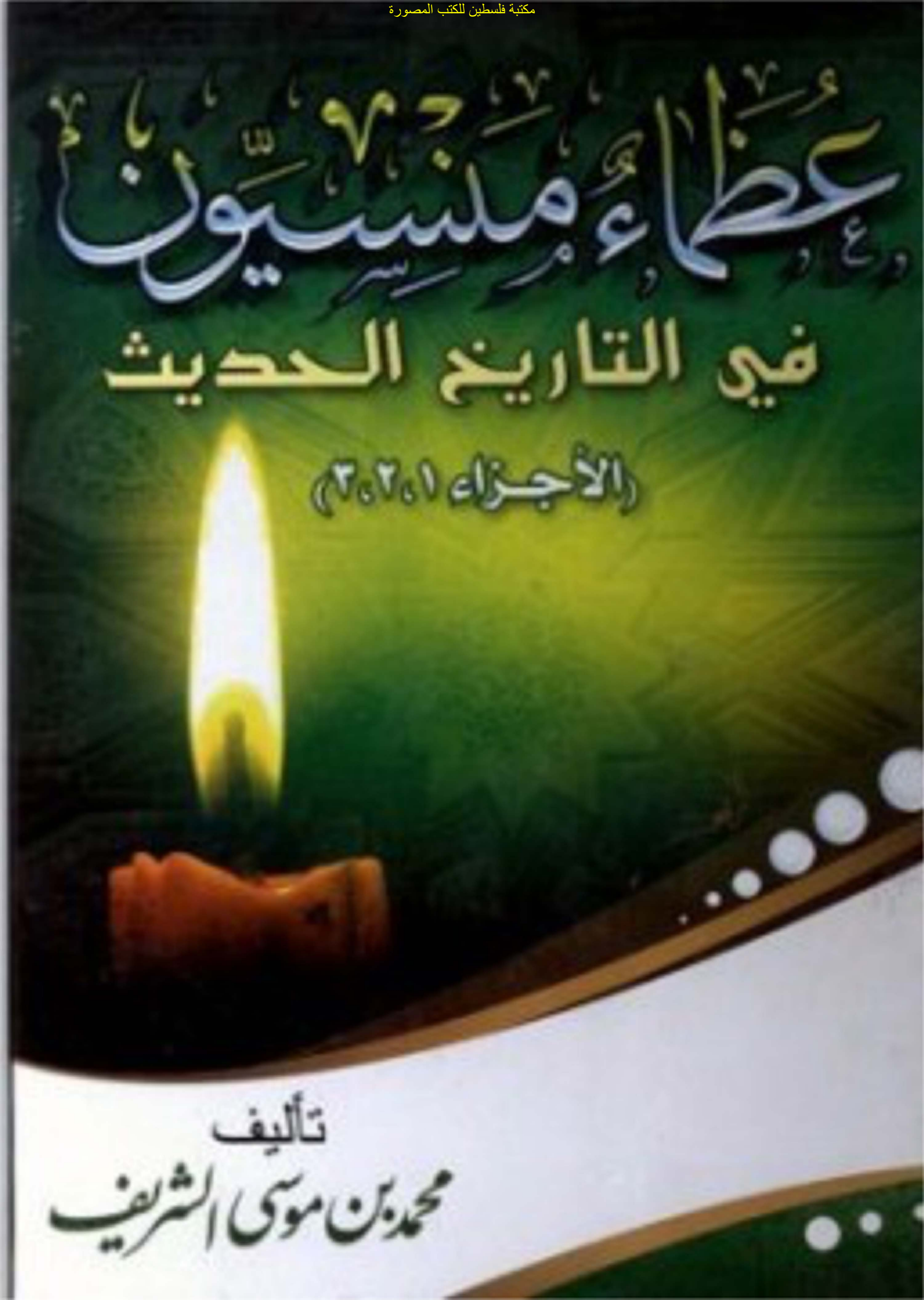

عظماء منسيون
في التاريخ الحديث
(الأجزاء ١، ٢، ٣)
تأليف
محمد بن موسى الشريف

عظماء منسيون

في التاريخ الحديث



د. محمد بن موسى الشريف

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٦٢٨٦

الترقيم الدولى: I.S.B.N.

978-977-456-314-9





• مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الجزء الثانى من سلسلة «عظماء منسيون فى التاريخ الحديث»، يحوى تسعًا من تراجم عظماء الرجال الذين كان لهم أثر ظاهر فى التاريخ المعاصر، وسرت فى منهج سرد تاريخهم على الطريقة نفسها التى سرت عليها فى إيرادى تراجم الجزء الأول، الذى فصلت فى مقدمته أهمية هذه التراجم وطريقتى فى إيرادها وسرد تواريخها، ولا أعود ها هنا لذكر شىء ذكرته فى مقدمة الجزء الأول لكنى أؤكد على شىء واحد فقط ألا وهو الأهمية البالغة للتراجم فى تنشئة وتربية الأجيال على الفضائل والكمالات، وأن هذه الأجيال فى حاجة ماسة إلى قدوات تقتدى بها،وليس هناك أعظم ولا أجل من أعلام الإسلام ليُقتدى بهم ويُتأسّى.

والله أعلم، وهو الموفق، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

محمد بن موسى الشريف

البريد الإلكترونى mmalshreef@Hotmail.com

الموقع على الشبكة www.altareekh.com

السلسلة الثانية

١- « رجل الحماسة والهمة » عبد العزيز الثعالبى.

٢- « العالم المجاهد » محمد أمين الشنقيطى.

٣- « القائد البطل » ساموری توری.

٤- « أمير البيان » شكيب أرسلان.

٥- « المجاهد » عمر الفوتى.

٦- « الداعية الأديب » محمد البشير الإبراهيمى.

٧- « المفسر العامل » أبو الثناء الآلوسى.

٨- « المجدد السلفى » محمود شكرى الآلوسى.

٩- « الإمام المجاهد الصومالى » محمد بن عبد الله حسن.

[١]

رجل الحماسة والهمة

عبد العزيز الثعالبى

[١٢٩٣-١٣٦٣هـ] [١٨٧٤-١٩٤٤م]





عبد العـزيز الثعالبى علم من أعلام تونس الخـضراء، كم فى تونس من أعلام، وكم ظهر فيها من رجال عظام منذ أَنِسَتْ بالفتح الإسلامى إلى يوم الناس هذا، ولئن نكبت فى هذا الزمان ببورقيبـة وابن على فإن فجرها قادم بإذن الله تعالى، وضياءها منتشر عما قريب، ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبًا.

كانت تونس إلى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى ولاية تابعة للخلافة العـثمانية، ولما ضعفت الدولة العثـمانية فى أوئل ذلك القرن بدأت الأخطار تتـهدد تونس من جـهتى فـرنسا وبريطانيـا، وابتدأ التـدخل الأجنبى يؤثر فى تونس منذ الثلث لأول من ذلك القـرن، وظهر ذلك فيـما يعرف بالامتيازات التى منحت لفرنسا ثم إنجلترا، وفى عدد الأجانب الكبير الذى انتـشر فى البلد، وصـبغ الحيـاة هناك بالصبـغة الغـربية، وأحـاطت الدسائس بتونس التى كانت قد خـطت خطوات إلى الحضارة والعمران على يد خير الدين التونسى الوزير، والشيخ محمود قابادو وآخرين.

لكن ذلك لم يدم؛ إذ سرعان ما سقطت البلاد فى قـبضة الفرنسيين سنة ١٨٨١ إثر مناوشات قبلية حدودية بين تونس والجـزائر اتخذتها فرنسا ذريعة لاحتلال تونس، ومن ثم إعـلان الحماية عليها سنة ١٨٨٢ فى الثـانى عشر من مايو، وعلى إثر ذلك عينت فرنسا فرنسيًّا مستعربًا يدعى لويس ماشويل رئيسًا لإدارة المعـارف وأطلقت يده فى البلد فاستولى على كل مـا له علاقة بالتعليم فى الجامعة الزيتونية، ووضع قـوانين تقدم الفرنسية على العربية فى



مناهج التدريس، وأوقف النهضة العلمية فى الزيتونة التى كانت قد جمعت آنذاك بين العلوم الشرعية والعصرية(١).

وقيدت فرنسا حريات التونسيين فى التعبير والنشر، وحولت الإدارة إلى النظم الفرنسية، وجعلت اللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية فى البلاد، وأهملت المؤسسات التى خطت خطوات فى الطريق إلى الحضارة والعمران، كالزيتونة ومدرسة باردو الحربية التى جمعت بين العلوم العسكرية والهندسية والرياضية.

وكان غياب خير الدين التونسى عن تونس مؤثرًا فى الروح المعنوية لأهلها، فقد استقال من الوزارة قبل الاحتلال لفرنسى لتونس وصار صدرًا أعظم -رئيسًا للوزراء- فى الدولة العثمانية وبقى فيها إلى وفاته سنة ١٨٩٠ .

وظهر على أثر ذلك فى تونس رجال يريدون الإصلاح والارتقاء مستمسكين بحبل الإسلام والعربية، وهى فئة مستغربة أنشأت جمعية سمتها «قدماء الصادقية».

وظهرت فئة ثالثة هى فئة المشايخ المعتزلين لذينك الفريقين، وهم بين سلفى وصوفى.

أما الفئة الأولى التى بنت دعائم إصلاحها على أسس إسلامية وعربية، وعلى إرادة الخلاص من فرنسا واحتلالها البغيض فقد برز فيها الشيخ سالم بو حاجب، والبشير بن مصطفى صفر تلميذ خير الدين التونسى، وقد كان لهم جمعية سموها «الحاضرة» وأصدروا جريدة أسبوعية لها الاسم نفسه، ومن ثَمّ أسسوا المدرسة الخلدونية ١٨٩٦ .

(١) ما أشبه صنيعه بصنيع اللورد كرومر فى مصر، وما أقربهما زمانًا وكيدًا وتضليلاً.



وفى تلك المدة برز الشيخ عبد العزيز الثعالبى الذى ولد سنة ١٢٩٣/ ١٨٧٤ فى تونس، وهو من أصول جزائرية، واهتم به جده المجاهد عبد الرحمن الثعالبى الذى قاوم الفرنسيين فى الجزائر، وقام على تعليمه وتحفيظه القرآن ومبادئ النحو والعقيدة.

ومن المواقف التى أثرت فيه فى صغره أنه لما كان فى السابعة من عمره رأى أمه تبكى، فسألها عن السبب فقالت:

أما رأيت الفرنجة يمرون من هنا؟ إنهم يحتلون تونس ولن يخرجوا منها إلا بالحرب.

ثم التحق بمدرسة باب سويقة الابتدائية بتونس ثم بجامع الزيتونة، واختلف المؤرخون هل أكمل دراسته أو لا، وكان كثير الانتقاد لطرائق التدريس ومناهجه وكتبه، وهذا أدى إلى تبرم بعض المشايخ منه.

ولما تألف فى تونس الحزب الوطنى الذى كان أول حزب يطالب بتحرير تونس سنة ١٨٩٥ انضم إليه، ثم أسس الحزب الوطنى الإسلامى، وكتب فى الصحف داعيًا إلى الاستقلال. فعطل الفرنسيون جريدتين، هما: المنتظر والمبشر، فأسس جريدة سبيل الرشاد التى استمرت عامًا ثم عطلت، ومن بعدها ضيقت الحكومة على الصحافة.

وهنا رأى أن تونس ضاقت عليه فقرر الخروج منها، لكن الفرنسيين منعوه فهرب إلى طرابلس التى كانت لا تزال تحت الحكم العثمانى، فعمل السفير الفرنسى فى طرابلس على إخراجه منها فخرج إلى إستانبول عن طريق اليونان وبلغاريا، فوصلها سنة ١٨٩٨ وتحدث مع رجال الدولة



وناقشهم فى القضية التونسيـة، ومن ثم غادرها إلى مصر واجتمع بكثير من كبارها، ثم عاد إلى إستانبول ومنها عاد إلى تونس فوصلها سنة ١٩٠٢ بعد أن بقى أربع سنوات خارجهـا، ومنذ ذلك الوقت أحاطت به محن وبلاءات أوجزها فى الآتى:

قبض عليه سنة ١٩٠٦ ووضع فى السـجن بتهمة محاربتـه للأولياء، وأُخذ سيرًا على الأقدام من السجن إلى المحكمة، وكان هناك عدد كبير من أهل البلاد قد اجتمعوا حوله رافعين علمًا أبيض وكتبوا فيه: اقتلوا الثعالبى الكافر!!

فسجن شهرين ثم خـرج لينادى بالإصلاح الذى لم يرضَ عنه الفرنسيون ولا بعض المشايخ.

ولما احتلت إيطاليـا ليبيا سنة ١٩١١ حـاول مساعدة المجـاهدين وإرسال المساعدات فنقم عليه الفرنسيون صنيعه.

سنة ١٩١٢ قبض عليه الفرنسيون وأخرجوه خارج البلاد فأضربت البلاد ثلاثة أيام وأصر الشعب على رجوعه فأبـى أن يرجع حتى يحقق الفرنسيون الإصلاح المنشـود فقال له الفرنسـيون: إن الحرب العالميـة على الأبواب فإذا انتهت الحرب قاموا بذلك، فعاد إلى تونس سنة ١٩١٤.

وظل عاملاً فى مجالات الإصلاح إلى أن اعتقل سنة ١٩٢٠ وسجن فى تونس.

ثم خـرج من البلاد سنة ١٩٢٣ وبقى خـارج تونس حتى عـام ١٩٣٧، وكان سبب إخراجـه هو مطالبتــه المسـتمــرة بالحريـات وعداءه مع الباى



-الحاكم- الجديد محمد الحبيب الذى كان من أصفيائه، ثم لما تولى الحكم انقلب عليه وعلى مبادئه التى كان ينادى بها من قبل، فغادر تونس إلى إيطاليا ففرنسا، ثم إلى مصر، فالحجاز.

ثم استقر به المقام فى العراق حيث درّس فى جامعة آل البيت ببغداد منذ سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٠.

وقد نظم الشاعر العراقى المشهور معروف الرصافى قصيدة قوية فى استقباله سنة ١٩٢٥:

أتونسُ إن فى بغدادَ قومًا ... تَرِفُّ قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب ... إلى مَنْ خُص منطقهم بضاد
ودينٌ أَفْصَحَتْ للناس قَبلاً ... نواصعُ آية سُبلَ الرشاد
فنحن على الحقيقة أهلُ قُربى ... وإن قضت السياسة بالعباد
وما ضَرّ البعادَ إذا تدانت ... أواصرُ من لسان واعتقاد
وإن المسلمين على التآخى ... وإن أغرى الأجانب بالتعادى

ثم قال عن الثعالبى:

وكان طوافه شرقًا وغربًا ... لغير تكسُّب وسوى ارتفادِ(١)
ولكن ساح لاستنهاض قوم ... حَكَوْا بجمودهم صفة الجماد
يغادر على العروبة أن يراها ... مهددة المصالح بالفساد

(١) الارتفاد طلب الرِّفد وهو العطاء.



ولقد استفاد منه العراق فانتدبه للإشراف على البعثة الطلابية العراقية إلى مصر، ومثّل العراق فى مؤتمر الخلافة بمصر سنة ١٩٢٥ الذى دعا إليه شيخ الأزهر عقب إسقاط الخلافة في إستانبول، وقد قيل إن ترشيحه ليشرف على الطلاب فى مصر هو لإبعاده عن العراق التى كان له فيها مكانة عالية أخافت ذوى الأمر من الإنجليز وأذنابهم.

ثم ترك العراق إلى مصر، ومنها سافر إلى الصين وسنغافورة وبورما والهند، ثم عاد للقاهرة ومنها إلى تونس حيث استقبل استقبالاً حافلاً من الشعب وكاد الشعب يُتَوِّجه عليه لكن قطعت فرنسا عليه الطريق، حيث أعلنت حالة الحصار على البلاد، وأنشأت المحاكم العرفية، وهذا أدى إلى أن ينزوى فى بيته ويتفرغ للتأليف والمحاضرات -أحيانًا- إلى أن توفى سنة ١٩٤٤ قبل أن يمتع ناظريه برؤية الاستخراب الفرنسى مطرودًا من أرضه، لكنه كان بلا منازع من أهم العوامل التى أسست لهذا الاستقلال وعملت له بجد واجتهاد.

أهم أعمال الثعالبى رحمه الله تعالى:

أولاً: فضح مخططات الفرنسيين وادعاءاتهم الباطلة:

فقد وقف عقبة كَأْداءَ أمام مؤامرة تجنيس فرنسا للتونسيين بعد الحرب العالمية الأولى، وظل يكتب فى الصحف المصرية وغيرها مفندًا هذا الأمر ومبينًا خطورته.

- وقد استطاع أن يُظهر بوضوح أن تونس قبل الاحتلال الفرنسى كانت تملك مقومات النهضة، وقد قطعت خطوات مهمة فى ذلك الطريق فجاء



الفرنسيون ليهدموا كل ذلك، وليس الأمر على العكس الذى يريده الفرنسيون ويذيعونه، وقد نشر فى ذلك مقالات جيدة.

- وفضح المخططات التنصيرية الفرنسية، وكشف زيف ادعاءاتهم بأن مسلمى شمال إفريقيا كانوا نصارى ثم دخلوا فى الإسلام، وبين أن هذا غير صحيح تاريخيًّا، وبين أيضًا أن ادعاء الفرنسيين أن أهل شمال إفريقيا من أصل غربى ادعاء عارٍ عن الصحة.
- وبيَّن كيف استولى الفرنسيون على خيرات تونس، فذكر أن مساحة تونس تبلغ ٩ ملايين هكتار -والهكتار ألف متر مربع- منها مليون هكتار أراضٍ جبلية، ومليون ونصف المليون غابات وأحراش، ومليون غير صالح للزراعة، وهناك خمسة ملايين ونصف المليون أراضٍ صالحة للزراعة استولى الفرنسيون على أكثرها، واستولوا كذلك على مناجم الفوسفات والرصاص والحديد والفحم الحجرى وغير ذلك.

وأراد الفرنسيون كتابة تاريخ تونس باللهجة العامية، واعتمادها لغة رسمية للتعليم والخطابات الرسمية، وكان الثعالبى وراء إفشال هذا المشروع ومشروع آخر له صلة به وهو إصدار معجم اللغة العامية، وكانت جهوده تلك من خلال كتابته المقالات الكثيرة ضد هذه المشاريع فى صحيفة التونسى.

- وكشف عوار سياسة التعليم الفرنسية، وبين أنها ترمى إلى إيجاد أيدٍ عاملة وليس عقولاً مدبرة، وأوضح أيضًا كيف عملت فرنسا على محاربة اللغة العربية والدراسات الإسلامية والتاريخية، وهذا الذى أزعج فرنسا فأخرجته من تونس وضيقت عليه خارجها، وقد أوضح كل هذا وغيره



فى كتابه «تونس الشهيدة» الذى نشره بالفرنسية ثم عُرب بعد ذلك، وعَدّت فرنسا كل من يقرأ الكتاب عدواً لها، وجعلت من قراءته جُنحة يعاقب عليها القانون الجائر.

ثانيًا: الدراسات التى قام بها عن المسلمين فى أقطار كثيرة:

كان الثعالبى قد ارتحل طويلاً، وجال فى بلاد كثيرة، وهذا ساعده على أن يقف على أحوال المسلمين فى بلاد عديدة، وكتب كل ذلك بالتفصيل، وإنى لأعجب من مثقفينا وذوى الرأى منا كيف لم يستفيدوا من تلك الكتابات، ومن ثَمّ يبنون عليها ويطورونها، فمن جهوده فى بيان أحوال المسلمين وأوضاعهم:

- التقى عشرات من زعماء المسلمين وكبارهم ومثقفيهم وأعلامهم، واقترح عليهم أمورًا من شأنها أن ترتقى بالمسلمين، وقد قابل زعماء، منهم الملك عبد العزيز والإمام يحيى. والنحاس باشا فى مصر.
- وصف أحوال الخليج العربى العلمية والثقافية فى مسقط ودبى والبحرين والكويت، وبين أن تجارة اللؤلؤ تجلب الرزق الوفير لأهل الخليج، لكنهم لا يستفيدون من ذلك المال حق الاستفادة فى عمل مشاريع فى البلاد إنما يودعونه فى المصارف الهندية، وقد ذكر الأستاذ عبد العزيز الرشيد فى كتابة «تاريخ الكويت» أنباء الاحتفالات به وما أُنشد من القصائد ابتهاجًا بقدومه إلى الكويت.
- وتحدث عن اليمن وأحوالها الاقتصادية، وبين أنها بلاد ذات حضارة ومدنية ووصف ما رآه فيها وصفًا جيدًا.



- وبيَّن أحوال المسلمين فى الهند، وكيف انتشر الإسلام هناك بدون دعوة مخطط لها أو حركة قوية من المسلمين، وقد قدّم تقريرًا عن مسألة المنبوذيين فى الهند إلى رئيس المؤتمر الإسلامى محمد أمين الحسينى، وكان تقريرًا جليلاً مفصلاً غاية التفصيل، وبين فيه رغبة المنبوذين فى اعتناق الإسلام، وقد بين فى تقريره حقيقة تخفى على أكثر المسلمين إلى يومنا هذا ألا وهى أن حركة الاستقلال فى الهند كانت بيد زعماء المسلمين وهم الذين ابتدءوها إلى أن خطفها غاندى منهم ثم نسبت إليه!!

وذكر أحوال المسلمين -على هذا المنوال- فى مناطق كثيرة، واقترح اقتراحات عديدة اقتصادية وسياسية وثقافية، لكن أين من يأخذ بكلامه واقتراحاته؟! إن إهدار أعمال الدعاة المثقفين، وأولى العلم العاملين لهو تضييع لجهود كثيرة وأعمال عظيمة، وإضاعة لتجارب كان يمكن الاستفادة منها، ولكن بمن نستعين وبمن نستغيث؟! الله المستعان.

ثالثًا: جهوده السياسية فى العالم الإسلامى:

لم يكتفِ الثعالبى بجهوده السياسية فى تونس، إنما امتد عطاؤه إلى البلاد العربية والإسلامية، فقد شارك فى مؤتمر الخلافة الإسلامى فى القاهرة استجابة لدعوة شيخ الأزهر المسلمين للنظر فى قضية الخلافة، وقد كان الثعالبى فى العراق آنذاك مدرسًا فاختاره العراق ممثلاً له، وكان ذلك سنة ١٩٢٥.

وكان عضوًا مؤسسًا فى المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى القدس سنة ١٩٣١ فى المسجد الأقصى، وقد اختير مفتى فلسطين محمد أمين الحسينى



رئيسًا لهذا المؤتمر، واختير الثعالبى رئيسًا للجنة الدعاية والنشر وعضوًا فى المكتب الدائم للمؤتمر.

رابعًا: جهوده السياسية فى تونس:

كان الثعالبى قد جمع بين الوعى الدينى والوعى السياسى، مازجًا ذلك بثقافة إسلامية جيدة، فكان لذلك شوكة فى حلق الفرنسيين وأتباعهم من التونسيين، وتجلت جهوده السياسية فى مظاهر عديدة منها:

- شارك الثعالبى فى حزب «تونس الفتاة» الذى كان ينادى بالارتباط بالخلافة الإسلامية والسلطان عبد الحميد، وانتقاد نظام الحماية الفرنسى، والدفاع عن الحضارة الإسلامية.
- سافر بعد الحرب العالمية الأولى إلى باريس ليكون فيها أثناء انعقاد مؤتمر الصلح -موتمر فرساى- وقد سمع أن الرئيس الأمريكى ويلسون سيحضره، وهذا الرئيس كان قد أعلن مبادئه الأربعة عشر لعقد الصلح ومنها حق الشعوب فى تقرير مصيرها، فسافر ليعرض القضية التونسية، وحاول فى باريس أن يجمع بين قلوب المسلمين هناك على تعدد أجناسهم، واتصل بزعماء الحركات التحررية فى العالم الذين كانوا فى باريس أثناء موتمر الصلح.

وأصدر هناك كتاب «تونس الشهيدة» الذى أشرت إليه آنفًا.

وقدّم إلى المقيم العام الفرنسى فى تونس الذى كان فى باريس آنذاك مذكرة طالب فيها بإلحاح برفع إجراءات الحظر على الصحافة التونسية، فألغت فرنسا على أثرها قرار تعطيل الصحف.



واتصل بالرئيس الأمريكى ويلسون وبالحزب الاشتراكى الفرنسى.

وعارض فى باريس حصول تونس على قرض مالى.

وكل ذلك أدى بالفرنسيين إلى سجنه فى باريس ومرسيليا، وأعيد إلى تونس ليسجن هناك أيضًا.

- إنشاء الحزب الدستورى وتولى رئاسته وذلك سنة ١٩٢٠، ولما ضُيق عليه فى تونس خرج منها سنة ١٩٢٣، ثم جرت أحداث عديدة انشق الحزب الدستورى على أثرها شقين، وأسس حسن قلاتى الحزب الإصلاحى الذى تقرب إلى فرنسا، وكان المتنازعون قد أرسلوا إليه قرابة ١٥٠ رسالة فكان على ذكر تام بما جرى هناك.

ولما عاد الثعالبى إلى تونس حاول استرداد الزعامة فى الحزب الدستورى وفى الحياة السياسية التونسية لكنه أخفق، ولعل السبب فى ذلك طول غيابه عن بلده، على أن الناس قد استقبلوه فى بلده إثر عودته استقبالاً جليلاً، وكان هناك ثلاثون ألفًا ينتظرونه فى ميناء العاصمة لكن ذلك لم يكن كافيًا لاستعادة زعامة الحياة السياسية فى ظل مؤامرات فرنسية وارتباطات مشبوهة لأذيال تونسية، وقد تعرض لمحاولتى اغتيال فى تونس بعد عودته أثناء طوافه بالبلاد التونسية لجمع الشمل واجتماع الكلمة.

مؤلفاته:

للثعالبى كتب قليلة ومقالات كثيرة، وكتابته بليغة مؤثرة كخطابته، وقد ألف بالفرنسية كتاب «روح القرآن الحرة» وألّف «تونس الشهيدة».



وألف بالعربية «معجزة محمد رسول الله ﷺ».

وله مئات المقالات بالعربية والفرنسية لا أدرى ما حالها اليوم وهل جمعت أم لا؟

وله محاضرات مطبوعة فى مجلة جامعة آل البيت فى بغداد من سنة ١٩٢٦-١٩٢٨.

أقوال تمدح الثعالبى:

محمود زكى باشا:

«كنت من أشد الناس إعجابًا بذكائه الباهر وفصاحة لسانه، وسعة اطلاعه، وغزارة علمه، وفرط حميته الإسلامية... وكان لا ينفك عن التكلم باللغة العربية الفصحى».

محمد لطفى جمعة:

«هو من أشرف البيوت وأعظمها، وله الكلمة العليا والصوت المسموع والأثر المحمود من أقصى تونس إلى أقصاها، بل شمال إفريقيا كله».

حامد المليجى محرر جريدة البلاغ:

«وفى مؤتمر القدس كان الثعالبى خطيبًا متحمسًا فاستعرض التاريخ منذ ظهور الإسلام وتلألؤ قوته إلى الحالة التى وصل إليها أهله اليوم، ثم ناشد المجتمعين أن يعملوا لاسترجاع المكانة التى كانت لأمتهم فقال: انسوا الماضى تبكوا واعملوا وأصلحوا».



الشاعر العراقى معروف الرصافى:

«أعظم خطيب عربى عرفه هذا القرن». وحسبك بهذا شاهدًا على بلاغته وعظم تأثيره.

محمود أبو الفتح فى جريدة السياسة المصرية ١٦/ ٥/ ١٩٢٦:

«إن مكانته فى تونس هى مكانة سعد زغلول فى مصر[١]، وإننى لا أنسى الثعالبى فى باريس عاصمة فرنسا عام ١٩١٩ يثير الأرض والسماد على فرنسا فى تحرير تونس، يثير أحرار الفرنسيين على سياسة الاستعباد».

وقال الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور وهو أحد من يُعْتَدّ برأيه وتزكيته:

«عبد العزيز الثعالبى واحد من ذلك الرعيل من المجاهدين المسلمين فى الوطن العربى إبان الحملة الاستعمارية التى اجتاحت المشرق الإسلامى، وقد تميز هذا الرعيل بطابع خاص فهم لم يكونوا زعماء سياسيين أو مجاهدين وطنيين أو صحافيين أو كتّابًا أو مصلحين اجتماعيين، وكلهم كانوا كل ذلك مجتمعًا فى شخصياتهم القوية الصلبة التى واجهت الاحتلال الأجنبى مضحية بكل ما تملك».

وقال الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو:

«إنى لأزعم بأن أحدًا من التونسيين المناضلين حديثًا والجوابين بعلمهم قديمًا لا يضاهيه فيما حققه من إشعاع وتركه من صدى فى معظم أنحاء آسيا والعالم الإسلامى».

---

(١) وعلى سعد زغلول مؤاخذات عديدة لعلى أبينها فى مكان آخر.



والعجيب أن هذه الشخصية العظيمة، -فيما علمنا وفيما جاء مِن تزكيات الذين عاصروها- تُنسى على هذا الوجه المفجع اليوم، فلا تتداوَل آراؤها، ويُهمل كلامها فى المجالات المتعددة التى خاضتها، وصارت كأمس الذاهب، وذهبت أدراج الرياح، وهذا يدل على تقصير مثقفى المسلمين وعلمائهم ودعاتهم فى العناية بأعلامهم المعاصرين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

-والعجيب -أيضًا- أن تونس كرمته سنة ١٩٨٩ أى بعد وفاته بخمس وأربعين سنة بدعوى أنه جاهد لاستقلال تونس، وحكام تونس اليوم يئدون جهود الثعالبى ويذهبون بها أدراج الرياح.

خامسًا: نظريات ومطالب مهمة دعا إليها:

قد كان للثعالبى جملة من النظريات والمطالب دعا إلى تحقيقها، فمن ذلك:

- الإيمان العميق بالحرية، والدعوة إليها بقوة.
- المناداة بالوحدة العربية حتى إنه اتهم من قبل بعض الباحثين بالقومية المحضة، وهذا بعيد عن قامة مثل الثعالبى، لكن الحق أنه كان ينادى بها لتكون مِن ثَمّ نواة للاجتماع الإسلامى، وما جهوده ورحلاته فى العالم الإسلامى إلا برهان لما ذكرته، والله أعلم.
- عدم الاعتراف بالحدود المصطنعة التى جعلها الاستخراب العالمى خنجرًا فى خصر الأمة حتى لا تتعاون التعاون الحقيقى المفضى إلى استعادة عزتها وسيادتها.

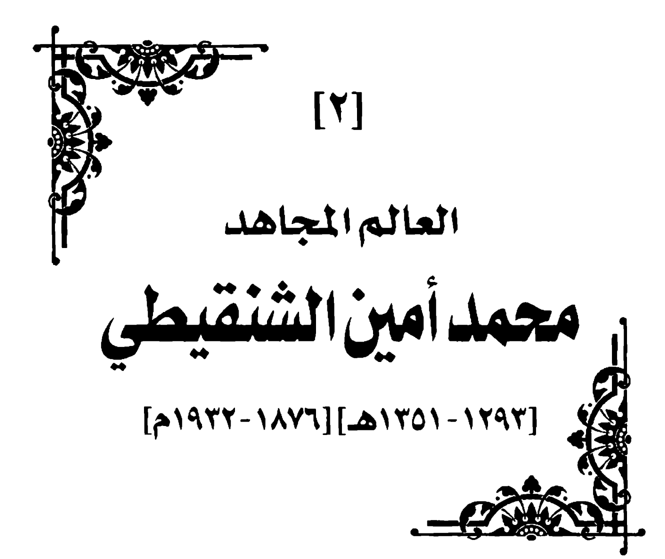


- الدعوة إلى العمل المؤسسى والجماعى، وهذا فى زمانه رأى تقدم به على كثير من غيره من المصلحين.
- الدعوة إلى العلم التخصصى المثمر، فالاقتصادى يتعمق فى علمه، والعالم الطبيعى يضبط علمه ويستنفد جهده فى هذا العلم حتى لا تتشتت الطاقات والجهود.
- تربية الأجيال على الإسلام والثقافة العربية والإسلامية، وكان يرى أن هذا هو السبيل لطرد الغزاة واستعادة السيادة.
- الدعوة إلى التجديد ومقاومة الجمود والتخلف فى الجامعات والمؤسسات العلمية الأخرى، وبناء العقل بناء حراً من التقاليد والعادات الجامدة.

وبعد:

فهذا هو الثعالبى وتلك حياته موجزة لكنها معبرة عن تصميم وحماسة وجهد وبذل وتضحية، فما أحرى الشباب أن يقفوا عليها ويقتدوا بها ويستفيدوا منها، فرحمه الله رحمة واسعة ونفعنا بصنيعه وجهاده.





[٢]

العالم المجاهد

محمد أمين الشنقيطي

[١٢٩٣-١٣٥١هـ] [١٨٧٦-١٩٣٢م]



لقد كان لعلماء شنقيط صولات وجولات فى العلم، لكن ربما لأن قطرهم بعيد جداً فقد سقطوا من ذاكرة الأمة، هذا وفيهم جهابذة كبار، وحالهم هذا يشبه حال أهل اليمن، وقد ذكر الشوكانى أن علماء اليمن - على عظمتهم- قل من يعرفهم فى مصر والشام والعراق، وهذا لبعد بلادهم وعزلتهم فيها، فإن كان هذا حال اليمن فكيف يكون حال شنقيط إذن؟

ولد الشيخ محمد فى موريتانيا، ونشأ فى طلب العلم وحفظ القرآن العظيم والمنظومات العلمية، كما ينشأ طلاب العلم فى بلده لكنه توسع فى دراسة الأدب والشعر الذى كان سائداً فى المنطقة آنذاك، ولما بلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا أى فى سنة ١٣١٨ ذهب إلى المغرب لطلب العلم ودار فى مدنها: الصويرة ومراكش والدار البيضاء والرباط، ومنها كان ينوى الذهاب إلى فاس حاضرة العلم والعلماء فى المغرب الأقصى، لكنه أصيب بالجدرى ثم شفاه الله منه فى العام نفسه فتوجه إلى القاهرة، ووفد على بلده الشيخ المشهور العلامة محمد محمود التركزى الشنقيطى المعروف بابن التلاميد، فعنى به وأخذه إلى مفتى الديار المصرية آنذاك الشيخ محمد عبده فعنى به أيضًا وكتب له كتابًا إلى محافظ السويس ليركبه إلى جدة، فأدى العمرة فى أواخر المحرم سنة ١٣١٩، ثم توجه إلى المدينة ليصاب بحمى ثقيلة لمدة سنتين لكنها لم تمنعه من التردد على العلماء ودروسهم، وبقى فى الحجاز بين مكة والمدينة إلى سنة ١٣٢٦/ ١٩٠٨، وذلك لأنه قد بلغه استيلاء الفرنسيين على بلاده فلم يشأ أن يبقى تحت العبودية، ثم سافر إلى



الهند، ثم إلى عمان فالبحرين، ثم الإحساء وقرأ هناك على شيخها عيسى ابن عكاس، وفى صفر سنة ١٣٢٧/ ١٩٠٩ جاءته رسالة من أحد مشايخه يطلب منه أن يتوجه إلى الزبير فى العراق ليدرس فى مدرسة بناها مزعل باشا السعدون، فلم يجد بدًا من الذهاب، فلما وصل الزبير وجد أن مزعل باشا قد مات، وقد عين أوصياؤه رجلاً مغربيًا مدرسًا فى المدرسة فهَمَّ بالرجوع فطلب إليه بعض الطلبة أن يعقد لهم دروسًا ففعل فأعجب به كل من سمعه حتى إنهم رجوه أن يبقى بينهم فاستجاب لهم، وبقى بينهم ورأوا أن يقيدوه فزوجوه فتاة يتيمة فكانت أم أولاده السبعة، وقام فى البصرة يعظ بأسلوب قوى وجرىء يحارب فيه الأوهام والبدع والخرافات، وينعى على العلماء جمودهم وتقصيرهم، وعلى الدولة العثمانية تعطيلها للحدود الروادع وإقرارها للفواحش -وهذا والله أعلم لأنه كان يدير الدولة العثمانية آنذاك جمعية الاتحاد والترقى الماسونية- وكل هذا أثار عليه بعض المشايخ الذين حسدوه ورفعوا إلى مدير الناحية أمره، وأنه يجب إبعاده لأنه يحرض العوام على الدولة العثمانية ويقلل من شأنها وهيبتها فى النفوس، لكن كان المدير عاقلاً عالمًا بسبب الحملة هذه على الشيخ فذهب إلى الشيخ محمد بن عوجان إمام مسجد الباطن وكان تقيًا ورعًا فسأله عن الشيخ الشنقيطى فأثنى عليه، وبين أنه لا يقصد فى وعظه إلا الخير، وأنه قد حصل به خير كثير لأهالى الزبير فاقتنع مدير الناحية وكف عنه.

وبقى الشنقيطى يدعو إلى الله تعالى ويجتهد فى نشر الخير إلى سنة ١٣٣١/ ١٩١٣، حيث دعى إلى الكويت ليشارك فى الجمعية الخيرية التى

أنشأها مجموعة من أهل الكويت، وكان الغرض منها إعداد طلاب العلم فى البلاد العربية المتفوقة علمياً آنذاك مثل القاهرة ودمشق وبيروت، والإنفاق عليهم حتى يعودوا، ولها أغراض خيرية متنوعة، وقد أسهمت هذه الجمعية فى تحريك المجتمع الكويتى آنذاك ودفعه إلى نهضة فكرية وعلمية وأدبية، فقد دعت إلى الكويت مشايخ كثيرين كرشيد رضا وحافظ وهبة ومصطفى لطفى المنفلوطى وعبد العزيز الثعالبى التونسى وغيرهم، وظل الشيخ الشنقيطى فى الكويت يعظ ويدرس إلى أن أصبحت الحرب العالمية الأولى على الأبواب، وكان الحاكم فى الكويت آنذاك الشيخ مبارك الذى كان قد عقد اتفاقية مع الإنجليز سنة ١٨٩٩ فخشى من الجمعية فأغلقها، وكاد الشيخ الشنقيطى يعتقل إثر أحداث جرت هناك حيث تخوف مبارك منه ومن مناصرته الدولة العثمانية فهرب إلى الزبير تاركًا زوجه وأولاده ست سنوات!! ولما وصل البصرة راح يدعو للجهاد فى سبيل الله ضد الإنجليز الكفرة، ولم يكتفِ بهذا بل شارك فى القتال بنفسه فى معركة الشعبية، وهى قرية تبعد عن البصرة عشرة أميال وعن الزبير ميلين، وقصة هذه المعركة كالتالى:

وردت برقية من البصرة لمختلف المدن العراقية جاء فيها: «ثغر البصرة الكفار محيطون به، الجميع تحت السلاح، نخشى على باقى بلاد الإسلام، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع». وتُليت البرقية على الناس، وصار الوعاظ والخطباء يلهبون الحماس ويثيرون المشاعر الدينية وأن الإنجليز إذا احتلوا العراق فإنهم سيهدمون المساجد، ويحرقون القرآن، وينتهكون حرمات النساء، وساد العراق كله حركة جهادية جليلة خاصة عندما أفتى شيخ



الإسلام فى الدولة العثمانية آنذاك خيرى أفندى أن الجهاد قد أصبح فرض عين على جميع المسلمين، والتحم المسلمون بالإنجليز فى الشعبية ثلاثة أيام أظهر فيها المسلمون شجاعة هائلة وحماسًا عظيمًا، وكان الهنود المسلمون جنودًا فى الجيش البريطانى!! فأثرت فيهم دعوات الجهاد فكان الإنجليز ينخزونهم بالسيوف والحراب ليخرجوهم لقتال المسلمين، وانتهت المعركة بانتصار الإنجليز المتفوقين عسكريًّا، ومن ثم انتقل الشنقيطى إلى بغداد لمدة أربعة أشهر ومنها إلى حائل التى مكث فيها قليلاً يدرس، ثم توجه إلى عنيزة واجتمع بالملك عبد العزيز هناك، واستضافه آل البسام مدة كتب فيها مذكراته.

ثم إن الشيخ أحمد الجابر الكويتى أراد الحج فعرج على عنيزة، واقترح على الشيخ الشنقيطى أن يرافقه إلى الحج، فوافق الشيخ وأكرم الشريف حسين مثواهما فى مكة، ثم عاد إلى عنيزة وبقى فيها سنتين يدرس ويعظ، ثم لما مات مبارك الكبير عاد إلى الكويت ليرى أسرته التى تركها ست سنوات!! والتقى بأمير الكويت الشيخ سالم الذى أساء استقبالهم إلى حد غريب فطرده من البلد وأمهله ثلاثة أيام للخروج منها، وربما كان ذلك بسبب ما جرى بين مبارك الكبير والشنقيطى، والله أعلم.

وتوجه الشيخ إلى الزبير ثم لحقت به أسرته بعد ذلك، وأخذ فى وعظ الناس وإرشادهم، ودعاهم إلى إنشاء المدارس فاستجاب له نفر من الزبيريين، وأنشأوا جمعية النجاة سنة ١٣٣٩/ ١٩٢٠، ومدرسة النجاة سنة ١٣٤٢/ ١٩٢٣، وقد تفوقت هذه المدرسة على مثيلاتها، وصار لها أثر جليل، وبلغ عدد طلابها سنة ١٣٦٦/ ١٩٤٧ أربعة آلاف طالب منذ تأسيسها.

ولما تأسست المدرسة سأله أحد وجهاء العراق عن رأيه فى افتتاح مدرسة للبنات، فبين الشيخ أهمية هذا الأمر، لكن الحسدة لم يرضوا إلا أن يؤذوه بهذه الفتوى فهيجوا عليه العامة بدعوى أنه يريد شيوع الاختلاط بين الرجال والنساء، وفاجأه أحد العوام بعد العشاء فضربه بعصا ضربًا مبرحًا، لكن أنقذه بعض الحاضرين، وأخذ الرجل للسجن، وانتشر الخبر فى العراق والكويت والخليج، ووردت البرقيات المنددة بهذا الصنيع الآثم، ولما خرج الرجل المعتدى من السجن جفاه الناس وعضه الجوع بنابه حتى جاء باكيًا إلى الشيخ تائبًا معتذرًا فواساه الشيخ بطعام من حانوت يتعامل معه، وكان الشيخ بهذا مطبقًا لقوله تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ولما صار الشيخ أحمد الجابر أميرًا للكويت -وكان صديقًا للشنقيطى- جاءته دعوة من النادى الأدبى فى الكويت سنة ١٣٤٣/ ١٩٢٤ فلباها مسرورًا واستقبل استقبالاً حافلاً وأقيمت له حفلة تكريمية رائعة، أنسته ما لاقاه زمان مبارك وسالم من قبل، وعاش أيامًا سعيدة فى الكويت.

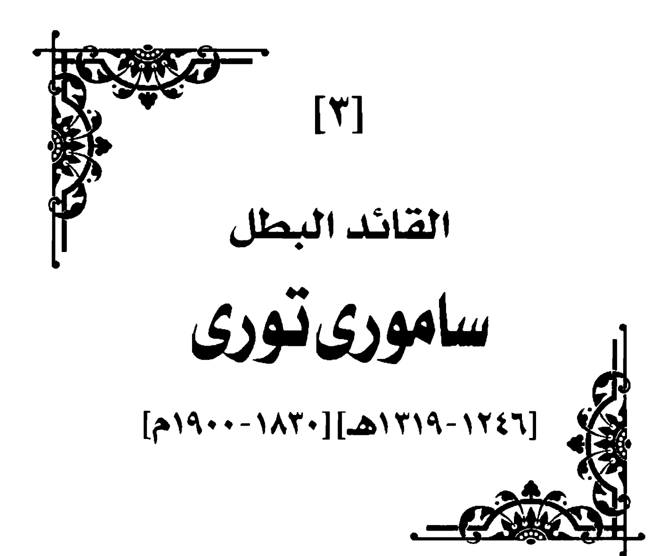
ثم إنه عاد إلى الزبير ليشرف على المدرسة التى أسسها هو وثلة من وجهاء الزبير، وكان يعمل كل ما فى وسعه من أجل إنجاح مقاصد المدرسة ورعاية طلابها وجلب التبرعات لها من المحسنين فى العراق والكويت، وسار على هذه السيرة حتى صار خريجو المدرسة منتشرين فى الزبير والبصرة والكويت وبغداد وغيرها، وصار منهم الأطباء والمحامون والعسكريون والمربون، والشعراء، والوعاظ، والمعلمون، وثبت الشيخ



الشنقيطي -رحـمه الله تعالى- على عطائه وبذله حـتى لقى الله تعالى سنة ١٣٥١/ ١٩٣٢ ودفن فى مقبرة الحسن البصرى رحمه الله تعالى.

تلك كانت حيـاة هذا الشيخ الذى جمع بين أعمال كـثيرة جليلة: تعليم العلم الشرعى، الدعوة إلى الله تعالى، الجهاد فى سبيل الله تعالى، التوعية فى زمن الجهل، الوقوف فى وجه الظلمة، مقـارعة الاستخراب البريطانى، وغير ذلك من أعمال جليلة تحمل فى سـبيلها الغربة عن وطنه، والبعد عن أهله، وشظف الـعيش وشـدته، وتجـهـم الأقـارب والأباعـد، والازدراء والاستخـفاف، وكل ذلك فى زمن الخوف والاضطراب أيام الحـرب العالمية الأولى وانتشار الفوضى فى كل مكان، فرضى بما هنالك، وثبت ثباتًا عجيبًا حتى أتاه اليـقين، وهذا هو المرجـو من ورثة سيـد المرسلين وإمام المتـقين، وذلك هو الطريق الذى لا مناص فـيه ولا محـيد عنه، فـرحمه الله رحـمة واسعة، ورفع درجته فى عليين.





[٣]

القائد البطل

ساموري توري

[١٢٤٦-١٣١٩هـ][١٨٣٠-١٩٠٠م]



طمع الغربيون بإفريقيا، وأقبلوا عليها من كل حدب وصوب لاقتسامها فى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، فاحتلت فرنسا الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا، واحتلت إنجلترا مصر، ولم يكتفوا بهذا بل زحفوا على قلب القارة السوداء فاقتسموها بينهم، فكانت منطقة نهر النيجر الكبرى من نصيب الفرنسيين، لكنهم لم يستولوا عليها إلا بعد مقاومة عنيفة شديدة من هذا الإمام الكبير والمجاهد العظيم ساموری توری.

وتوری هی عشيرة تسكن مدينة جنى فى قلب إمبراطورية مالى الإسلامية، فلما قامت مملكة صنغى مكان إمبراطورية مالى ترك التورى جنى إلى أعالى النيجر.

ولد فى بلدة سانانكورو Sanankoro بالقرب من بيساندوجو بغينيا الفرنسية وتقع فى أعالى حوض نهر ميلو أحد روافد نهر النيجر، ولا يعرف بالضبط تاريخ ولادته إلا أنه بين عامى ١٢٤٦- ١٢٥١، ١٨٣٠- ١٨٣٥م، وتلقى تعليمه الأولى على يد والده، ثم تعهده أحد المشايخ بالرعاية والتعليم، وقيل: بل ولد من أبوين كافرين ثم اعتنق هو الإسلام بعد ذلك، والله أعلم، وهناك حادثة طريفة فى تعلمه القتال وهى أن أمه وقعت فى أسر أحد الزعماء الأفارقة وهو الملك سورى بيراما ملك بيساندوجو، فكان عليه -إذا أراد أن يفتديها- أن يخدم فى جيش هذا الزعيم مدة من الزمن، وهذا الذى صنعه، وبعد انقضاء خدمته لمدة سبع سنوات اكتسب خبرة فى فنون الحرب والقتال والتفاوض مع الأعداء.



وابتداء من سنة ١٨٦٢ استطاع أن يجمع الشباب حوله ليكون قائدهم، وكون نواة دولة وسعها من بلاد الوثنيين حتى وصل إلى حافة فوتا جولون غربًا، وبورى شمالاً، وتعاطف التجار معه فساعدوه فى إنشاء دولته الناشئة، وتنازل له أعمامه فرضوا أن يكون تحت إمرته، ونجح فى ضم مدينة كانكان وطوّع جماعات اليسيسى تحت سيطرته، وحطم الوثنيين فى الشمال فى كونيا العليا، وفى سنة ١٨٤٤ فى ٢٥ يوليو/ رمضان جمع أهله فى احتفال وأعلن لهم أنه سيلقب نفسه بلقب الإمام، وطلب من أهله ورعاياه أن يعتنقوا الإسلام، وفى نوفمبر من العام نفسه منع الخمر شربًا وبيعًا فى مملكته، ومنع العادات الوثنية، وبدأ فى تطبيق الشريعة.

كان عامة جيشه من المشاة وقليل منهم من الفرسان، وسلحهم بأسلحة أوربية حديثة كان يشتريها من البريطانيين فى فريتون مقابل بيع الذهب والعاج وأسرى الحروب، وكان حرسه الشخصى مكونًا من ٥٠٠ رجل، وكان لأخيه مالنكى تورى قوة خاصة تقدر بمائتى فارس وألف راجل.

كان الفرنسيون قد عزموا على الاستيلاء على كل المنطقة التى يجرى فيها نهر النيجر، فأتاهم الله بهذا البطل الذى كبدهم من الخسائر فى الأموال والرجال ما لم يتوقعوه، حتى إن بيروز Peroz وهو من كبار عساكر الفرنسيين لقبه بنابليون السودان، وهذا البطل العظيم هو فى الحقيقة فوق هذا اللقب بكثير، فقد دوخ الفرنسيين بجهاد جليل دام ثلاثة عشر عامًا!! هذا وأسلحته تعد بدائية أمام آلة الحرب الفرنسية الجبارة، لكنه الإيمان إذا وقر فى القلوب فلا يقوم أمامه شىء، لكن ابتلى بعدو مسلم كدر عليه جهاده،



واتفق مع عدوه ضده، وهذه بلية تكررت فى بلاد المسلمين كثيراً، خاصة فى الأندلس وفى بعض بلاد المغرب العربى الكبير، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وعدوه هذا اسمه تيبا Tieba حاكم كندوجو Kenedougou وكان هذا عدوه الأول لكنه ليس الوحيد فقد ابتلى بغيره، لكن كان ذلك هو العدو اللدود الذى ساعد الفرنسيين كثيراً فى ضروب ساموري، بحيث كان الفرنسيون يهجمون عليه من جهة فيهجم عليه تيبا من جهة أخرى ليصير ساموري بين المطرقة والسندان، وما درى هؤلاء الحكام المساكين أن استعانتهم بالكفار على هذا الوجه والتنسيق معهم لضرب المسلمين هو تمزيق لعقيدة الولاء والبراء، وإذهاب لقوة المسلمين أدراج الرياح، وسرور الأعداء وشماتتهم، لكن قاتل الله الحرص على الكراسى فكم جلب من المآسى، واستعصى انتزاعه على الآسى.

وتفصيل إنشائه الدولة ومقاومته الجليلة -رحمه الله تعالى- للفرنسيين أنه اتخذ من بلدة بيساندوجو Bissandougou عاصمة لملكه، وأقامها على الجهاد فى سبيل الله تعالى وأحكام الشريعة الإسلامية، وهذا ما أكسبه حيوية وطاقة متجددة لا تنضب، واضطر أن يهادن جيرانه من الإنجليز حتى لا يفتح عليه باباً ثالثاً هو فى غنى عنه فيكفيه عدوه الفرنسى وعدوه تيبا، وأنشأ جيشاً قوياً نسبياً قسمه ثلاثة أقسام: أفضلها وأعظمها قوة جعلها قائمة فى وجه الفرنسيين ليمنعهم من التدخل فى البلاد، والقسم الثانى جعله لحفظ الأمن فى بلاده، والقسم الثالث جعله للتوسعات والفتوحات الجدية للقضاء على الوثنية ونشر الإسلام، وبلغ من حرصه على جيشه أنه استطاع



أن يصنع بعض الأسلحة وقطع الغيار محليًّا، وتلك مرحلة متقدمة فى زمنه رحمه الله تعالى، وباقى الأسلحة يشتريها من مدينة فريتون بسيراليون.

وقد فرض على زعيم كل قرية أن يأتيه بشبان صالحين للجندية، وفى أوقات السلم كانت القوات الاحتياطية تسرح ستة أشهر لتعمل فى فلاحة الأرض وإجراء المنافع، لتعود بعد ذلك، فإن كان فى حاجة لها أبقاها وإلا سرحها مدة أخرى وهكذا، وهذا ضبط جيد فيه صيانة للدين والدنيا معًا، وكان سكان مملكته مليونًا وربع المليون.

وقسم بلاده تقسيمًا إداريًّا منضبطًا إلى اثنين وستين ومائة إقليم، فى كل إقليم عشرون قرية على كل منها زعيم، وفوق الزعيم حاكم الإقليم، وفوق حاكم الأقاليم الإمام الذى من مهامه نشر الإسلام والقضاء على الوثنية، وتقوية الدولة والمحافظة عليها.

وقد أكثر رحمه الله من بناء المدارس والمساجد، ونشر الوعاظ، واهتم بتحفيظ القرآن الكريم.

حروبه مع فرنسا:

توسعت فرنسا فى غرب إفريقيا لتسترد هيبتها التى فقدت عقب هزيمتها فى ١٨٧٠ أمام روسيا، وأيضًا استفادت من مقررات مؤتمر برلين سنة ١٣٠٢/ ١٨٨٤ الذى سمح بتنظيم الاحتلال الأوربى للقارة السوداء، فوضعت فرنسا نصب عينها مملكة الإمام ساموري تورى، ووجدت الفرصة سانحة عندما ارتمى فى أحضانها عدوه تيبا المسلم حاكم كندوجو!! فكانت فرنسا تنسق مع تيبا ليحرك قواته إذا حركت هى قواتها حتى تضعف من



مقاومة سامورى، وما زالت فرنسا تحاربه حتى اضطر لهدنة تتجلى بموجبها قواته من الضفة اليسرى لنهر النيجر تمامًا، ويعترف باستيلاء فرنسا عليها وعلى مناجم الذهب فى بوريه وإرغامه على التعامل مع المراكز التجارية الفرنسية، ومقابلها تعترف له فرنسا بملكيته للضفة اليمنى من النهر.

بعد المعاهدة توجه الإمام إلى عدوه تيبا ليقضى عليه وحاصره ستة أشهر فى عاصمته سيكاسو لكنه أخفق فى فتحها، ولجأ الفرنسيون إلى الحيلة ليخففوا عن حليفهم تيبا الحصار ففك الإمام حصاره عن العاصمة وعاد إلى بلاده، لكن بعد أن تحمل خسائر كبيرة فقد قتل سبعة آلاف من جنده واثنين من أشهر قواده، وثار بعض شعبه عليه فى أعقاب هذه الحملة، وعارضوا مطالبه بزيادة الجند.

تولى قيادة الجيش الفرنسى فى المنطقة قائد شديد العداوة للإسلام والمسلمين اسمه أرشينار، وفرض على سامورى معاهدة أخرى سنة ١٣٠٧/ ١٨٨٩ تنازل فيها الإمام عن بعض الأراضى وتعهد بعدم الإغارة على البلاد التى احتلتها فرنسا، وقبلها الإمام لأنه كان فى حالة ضعف ولم يشأ أن يصطدم مع الفرنسيين آنذاك.

وأراد القائد الفرنسى أن يستغل تيبا فى صراعه مع الإمام مرة أخرى، خاصة أن تيبا أرسل له رسالة يقول له فيها: «إنى على ثقة من حسن استقبال أهل البلاد لكم فهم لن يخافوكم، ولن يخشوا إغاراتكم، وسوف يتغير رأيهم فيكم، وتتلاشى كراهيتهم عندما يتفهمونكم ويدركون أغراضكم»!! وهذه خيانة من تيبا لشعبه المسلم وخيانة لحاكم مسلم آخر ولشعب مسلم عريض، لكن حب الرئاسة يعمى ويصم.



وحاول القائد أرشينار أن يستميل الإمام وأن يغريه بمعسول القول فى رسائل عديدة أرسلها له واقتراحات اقترحها عليه، لكن كان الإمام يقظًا فواجهها بالاحتقار الذى تستحقه.

وقد استطاع القائد أرشينار أن يحتل مدينتين من مدن الإمام: كانكان، وبيساندوجو، لكن عندما دخلها وجدهما أكوامًا من الرماد فقد أحرقهما الإمام حتى لا يستفيد منهما بشىء.

وكانت مملكة ساموری تدعوها فرنسا بالإمبراطورية المتنقلة؛ لأن ساموری كان كلما فقد جزءًا من مملكته عوضه بأجزاء أخرى من الممالك الوثنية المجاورة، فكأنه لم يفقد شيئًا وإنما غير حدود مملكته بهذا.

غيرت الحكومة الفرنسية القائد أرشينار وأتت بقائد آخر اسمه بونييه Bonnerr بغية تحقيق نصر سريع بعد أن طالت مدة مقاومة ساموری، وجرد القائد الجديد حملة بقيادة مونتى Monteil لكنها منيت بهزيمة ساحقة من قوات الإمام ساموری وأسر من الجند الفرنسيين عدد كبير، ثم أرسلت فرنسا حملة أخرى فهزمت ولله الحمد كما هزمت سابقتها، فجنحت فرنسا للسلم، وأرسلت حاكم السنغال الفرنسى ليعقد معاهدة مع الإمام الذى قبلها لحاجته إلى الراحة والإعداد وللتفرغ لنشر الإسلام بين الوثنيين، لكن الفرنسيين لجأوا إلى الحيلة والخداع فى هذه المعاهدة وتمكنوا على إثرها من تعقب الإمام فى معركة كبيرة فى يوليو سنة ١٨٩٨ كسبها ساموری ضد القائد الفرنسى لارتيج Lartigue، لكنه أخطأ فتحرك غربًا فدخل الغابات الاستوائية وجبال الدان فى فصل الأمطار، فأصابت جنده المجاعة وتشتتوا



فلم يجتمعوا بعد هذا، وأراد ساموري أن يعود إلى سانكورو، لكن الفرنسيين رفضوا إلا أن يأتيهم بأبنائه رهينة ويسلم أسلحته فعظم عليه ذلك فواصل القتال حتى قبض عليه غدرًا ونفى إلى جزيرة أوجويه Ougoue فى سنة ١٣١٧/ ١٨٩٨ وقيل نفى إلى الجابون، وتوفى فى سنة ١٣١٩/ ١٩٠٠ رحمه الله تعالى، واستقرت فرنسا فى غرب إفريقيا عقب هذا الانتصار المفاجئ.

وقد ترك حفيده أحمدوا سيكوتورى ليتولى المقاومة من بعده، وليصبح أول رئيس لغينيا التى حصلت على استقلالها سنة ١٩٥٨.

أما عدوه تيبا فقد استولى الفرنسيون على بلاده، وهذه عاقبة كل خائن عميل.

وقد انتصرت فرنسا لثلاثة أسباب رئيسية:

١- العداء بين القادة المسلمين والخيانة والعمالة من بعضهم.

٢- مساعدة الوثنيين لهم.

٣- القوة الحربية كانت لصالحهم فى السلاح والعتاد.

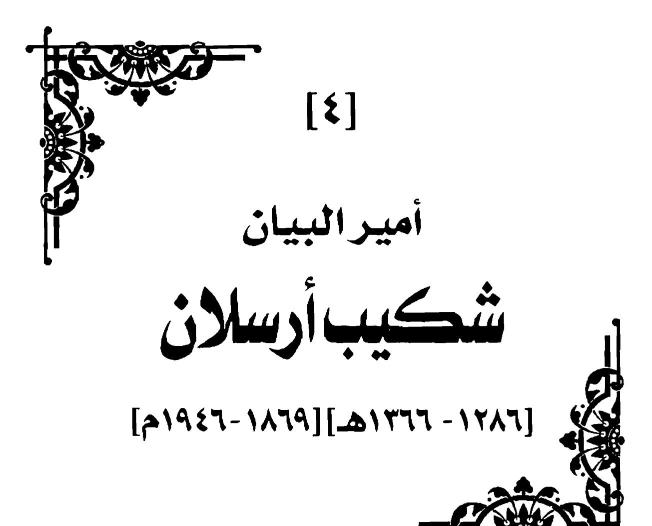
لكن يكفى ساموري شرفًا وفخرًا أن أقام دولة نشرت الإسلام وحاربت الوثنية كل تلك المدة، ويكفيه أنه وقف أمام دولة عظمى آنذاك ثلاثة عشر عامًا أذاقها الهزيمة مرات عديدة، ووحد شعب الماندينجو بعد أن كان قبائل متناثرة وعشائر متناحرة، فرحمه الله ورضى عنه، وأعلى درجته فى عليين.



موقف جليل فى حياة ساموري توري:

هناك موقف عظيم فى حياة الإمام ساموري توري رأيت أن آتى به مذيلاً سيرته حتى يبرز ولا ينسى، وهو أن الفرنسيين اختطفوا ولده وساوموه على رده بمساومات لم يرضها فلم يقبل فأخذوه إلى فرنسا ست سنوات، واستطاعوا التأثير عليه وتغيير أفكاره ليصبح منهجه مخالفًا لمنهج أبيه تمامًا وأرسلوه إلى أبيه ليقنعه بترك الجهاد، وهنا تجرد ساموري توري لله تعالى، وعظمت عنده عقيدة الولاء والبراء، وقتل ولده فى مشهد عام بين الناس حتى لا يؤثر على حركة الجهاد، وهذا الصنيع العظيم يصدق فيه قول الله تعالى: ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾ [المجادلة: ٢٢] فلله در هذا الإمام العظيم.





[٤]

أمير البيان

شكيب أرسلان

[١٢٨٦ - ١٣٦٦هـ] [١٨٦٩-١٩٤٦م]



جاحظ عصره، وإمـام من أئمة الكتاب، وشاعر مجيـد، وناثر فذ سخر قلمـه طويلاً لنصـرة قضـايا العـرب والمسلمـين، وهو من العلمـاء بالأدب والسياسة والتاريخ، يقول عنه الأستاذ على الطنطاوى:

إن شكيب أعظم شـخصيـة عربية، وكـان لسان الإسـلام، وأحسب أن مقالاته لو جمعت لجاء منها كتاب فى ضعف حجم الأغانى.

ولد فى الشـويـفـات بلبنان سنة ١٢٨٦/ ١٨٦٩، من أسـرة تنوخيـة الأصل، والتنوخـيون هم الذين كـانوا ملوك الحيـرة، وتقلب فى الوظائف والمناصب، فكان قـائم مقام فى الشـوف ثلاث سنوات، وانتخب نـائبًا عن حوران فى مـجلس «المبعوثان» العـثمانى وهو بمـثابة البرلمان لكل الشـعوب العثـمانيـة، وسكن دمشق فى أثناء الحـرب العالميـة الأولى، ثم برلين، ثم انتقل إلى جنيف ليـعيش فى سويسرا خمـسًا وعشرين سنة يدافع فـيها عن قضايا الإسلام والمسلمين، ثم عاد إلى بيروت فتوفى بها ودفن بالشويفات.

تلك كانت سطوراً مختـصرة عن سيرته التى تحـتمل مجلدات، وهو من طائفة الدروز الذين يسـكنون جبل لبنان، لكن شكيبًـا كان قد تسنن وتعـبد وصلى وصـام وحج على منوال أهل السنة، وتزوج امـرأة من أهل السنة، ولهذا فمن الدروز مـن لا يراه درزيًا ومن أهل السنة من لا يراه سنيًا، لكن زوجه أكدت انتسابه إلى أهل السنة ولله الحـمد والمنة، كما ذكر ذلك العالم الأديب أحمـد الشرباصى نقلاً عن زوجـه نفسهـا حيث قابلهـا وذكرت له



ذلك، وزوجه هذه شركسية قفقاسية تزوجها الأمير شكيب فى إستانبول لما كان عمرها عشرين سنة، وكان هو قد جاوز الأربعين، وليس له غيرها.

وقد نبغ شكيب أرسلان -رحمه الله تعالى- مبكرًا، فأخذ فى نظم الشعر وكتابة المقالات وهو لم يتعدَّ الستة عشر عامًا، ولقد رآه الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية لما نفى إلى لبنان فقال له: إنى أعرف اسمك، وستكون من أعظم الشعراء، هذا وقد كان عمره آنذاك سبعة عشر عامًا، ثم توثقت صلته بالأستاذ محمد عبده، وزاره فى مصر وخالطه طويلاً، وجلس إلى جمال الدين الأفغانى بإستانبول، ورأى الشاعر أحمد شوقى فيها، واجتمع بالأستاذ رشيد رضا فى بيروت، وكل هذا طبع فى قلب الشاب وعقله وجوب العناية بالمصادر الإسلامية والبحث فى آلام الأمة وآمالها، والاهتمام بشئون العالم الإسلامى، وهذا جعله يشارك أمته همومها، فمن ذلك أنه شارك فى الجهاد ضد الإيطاليين فى ليبيا سنة ١٩١١، وقاد ستمائة جمل تحمل المؤن من مصر إلى برقة، وظل فى موطن الجهاد ثمانية أشهر تقريبًا.

وقال الزعيم الليبى سليمان البارونى: «لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التى رسمها الأمير شكيب ونفذتها بحذافيرها لما ضاع الأمل فى إنقاذ طرابلس وبرقة، أو لاستطعنا على الأقل إطالة الحرب ثلاث سنوات أو أربع».

وسافر إلى المدينة المنورة سنة ١٩١٤ ليفتح مدرسة فيها.



وفى أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ أقام بمعان -فى جنوب الأردن الآن- قرابة شهر ومعه مائة وعشرون مجاهدًا، ثم انضم إلى الجيش العثمانى الحجازى، وكان لا يثق بالحلفاء ويهاجمهم، ويعارض الثوار العرب فى ثورتهم ضد الدولة العثمانية، وذلك لإخلاصه إخلاصًا منقطع النظير لها، ولأنه يعلم أن الخلفاء سيستولون على البلاد العربية بعد الحرب، ولذلك أرسل إلى أحد الأشراف الثوار قائلاً:

«ماذا تصنعون؟

أتقاتلون العرب بالعرب؟

وتسفكون دماء العرب بأيدى العرب، ولأجل أن تكون سورية لفرنسا، والعراق لإنجلترا، وفلسطين لليهود؟».

فلما انتهت الحرب وانهزمت الدولة العثمانية رأى أن الدولة العثمانية بقيادة الكماليين أدارت ظهرها للعروبة والإسلام، وأن مصطفى كمال قد أسرف فى عداوة الإسلام، فقرر أن يدعو إلى الوحدة العربية بعد أن كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية، وله عذره الواضح فى هذا؛ إذ بعد إلغاء الخلافة لم يكن هناك دولة إسلامية جامعة، وكانت الدول العربية والإسلامية تتساقط فى أيدى الاحتلال واحدة بعد أخرى، وكانت الأحوال غير مواتية آنذاك للدعوة إلى الجامعة الإسلامية فدعا شكيب إلى الوحدة العربية حتى قال الملك فيصل بن الحسين له: «أشهد أنك أول عربى تكلم معى عن الوحدة العربية وأراد أن تكون وحدة عملية»، هذا على أن شكيب لم ينسَ الوحدة الإسلامية، لكنه كان سياسيًّا عمليًّا يعمل فى المتاح له



حسب أحوال زمانه، هذا وقد كان شكيب حـريصًا على إعادة الخلافة عقب إلغائهـا فى تركيا، ويكاتب الشـيخ رشيد رضا فى ذلك، ويقـترح فى هذه المسألة اقتراحات لكن الأمر كان أكبر منه.

ثم إنه لما احتلت فرنسا سورية الكبرى رفض أن يبقى فيها فخرج إلى ألمانيا التى كان لهـا صلات بالدولة العثـمانية قوية ودخـلتا الحرب معًـا، فرحب به القوم، وأقام فى برلين، ورافق الإمبراطور غليوم فى زيارته لسورية بعد ذلك.

ولما كان مقر جمعيـة الأمم -عصبة الأمم- آنذاك فى جنيف بسويسرا ترك الأمير شكيب إقامته فى برلين واستقر فى جنيف لمدة ربع قرن تقريبًا، مدافعًا عن قضايا العروبة والإسلام، وشارك فى أعمـال ومؤتمرات كثيرة كانت تعقد فى سويسرا وأوربا ومنها مـؤتمرات الوفد السورى الفلسطينى الذى كان يرفع ظلامته إلى جمعية الأمم «عصبة الأمم»، وما أشبه الليلة بالبارحة!!

من اللطائف عن شكيب:

لما حج كان الوقت صيفًا فلم يسـتطع أن ينام ثلاثة أيام بلياليهن، فأرسله الملك عبد العزيز إلى بستان عبد الله السليمان فى الزاهر بمكة المكرمة، فنزل فى بركة البسـتان فبرد جسده فنام!! ثـم أوصى الملك بإصعاده إلى الطائف حتى يأتى وقت الحج.

ولما كان فى الحـجاز عـرض عليه الملك عـبد العزيز أن يرسـل له جارية ليتسرى بها فرفض قائلاً: «إننى متزوج، وأنا أحب زوجتى، وفوق هذا فإن زوجتى تغضب علىّ إذا عرفت»!!



له رسالة منشورة باسم «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟» قال عنها الأستاذ رشيد رضا:

اضطربت بها بعض دول الاستعمار، وزلزلت زلزالاً شديدًا، حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سورية بمنع نشرها فيها، وهى أحق بها وأهلها، فانفردت بهذه العداوة للإسلام دون من أغروها بها.

وكذلك منعت فرنسا دخول هذه الرسالة الجزائر حينئذٍ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها.

أسلوب شكيب فى الشعر والكتابة:

كان الأمير شكيب أرسلان يعد شاعرًا من مقدمى شعراء عصره لكنه فى النثر من أهل الطبقة الأولى، وكان يغرب أحيانًا فى عباراته وكلماته فيأتى بها عربية قحة صعبة، وكان يسجع أحيانًا، لكنه إذا أطلق ليراعه العنان فإنه يأتى بكلام رائع جليل، أكتفى منه بهذا الذى كتبه بعد زيارته الأندلس شعرًا ونثرًا:

يقولون كانت أمة عربية ... بأندلس سادت بها جم أعصر

وقد عمرت أقطار أندلسٍ بهم ... فكم بلد فخم ومصر ممصّر

وكم أربع خضر وحرث مطبق ... وفاكهة رغد وزهر منور

وكم قائد قرم وجند مدرب ... وكم سائس فحل وأمر مدبر

وكم بطل إن ثار نقع رأيته ... يبيع بأسواق المنايا ويشترى

وما شئت من علم ورأى وحكمة ... ودرس وتحقيق وقول محرر



إلى شمم جم ومجد مؤثل ... وفى عزة قعسا ووفر موفر

نعم كان فيها من نزار ويعرب ... جموع نخيل الأرض فى يوم محشر

فراحت كأن لم تغن بالأمس وانقضى ... لهم كل ركز غير ذكرٍ معطر

وقد قال فى كتابه «الحلل الأندلسية»:

«نعم: حواضر كالبحار الزاخرة، كانت تموج بالبشر، وحصون كالجبال الشامخة تحصى بالألوف... وجيوش كانت حصى الدهناء ورمال البطحاء، ومساجد كانت فى الجوامع المشهورة تغص بألوف الألوف من المصلين، ومدارس كانت مكتظة بالألوف من القراء والطالبين، وما شئت من إسلام وإيمان، وحديث وفرقان، وأذان يملأ الآذان، وما أردت من نحو ولغة وطب، وحكمة ومعانٍ وبيان، بلغة عربية عرباء، يحرسها علماء كنجوم السماء، وما أردت من عيشٍ خضْلٍ وزمن نضْر... كل هذا عاد كهشيم المحتظر، كأن لم يغن بالأمس، ولم يبق منه إلا آثار صوامت، وأخبار تتناقلها الكتب، كأنه لم يعمر الأندلس من هذه الأمة عامر، ولا سمر فيها سامر...

وأما السائح الشرقى فإنه يقضى سياحته فى إسبانيا متأملاً غائصًا فى بحار العبر، هائمًا فى أودية الفكر، كلما عثر على أثر قلبى خفق له قلبه، واهتزت أعصابه، وتأمل فى عظمة قومه الخالين، وما كانوا عليه من بُعد نظر، وعلو همم، وسلامة ذوق، ورفق يد، ودقة صنعة، وكيف سمت بهم هممهم إلى أن يقوموا بتلك الفتوحات فيما وراء النهر فى بحبوحة النصرانية، وملتطم أمواج الأمم الأوربية، وأن يبنوا فيها بناء الخالدين، ويشيدوا فيها ألوفًا من الحصون، وأن يملأوها أساسًا وغراسًا كأنهم فيها أبد الآبدين.



فلا يزال قلب السائح المسلم فى الأندلس مقسمًا بين الإعجاب بما صنعه آباؤه فيها والابتهاج بما يعثر عليه من آثارهم، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذى ملكوه، والوجد على ضياع ذلك الإرث الذى عادوا فتركوه، وأكثر ما يغلب عليه فى سياحته هناك هو الشعور بالألم، فهو لا يزال يسير بين تأمل وتألم، وتفكر وتحسر...».

تدينه وفهمه للإسلام:

كان الأمير شكيب -فى الجملة- متدينًا، محافظًا على الصلاة فى زمن كانت الصلاة فيه مهجورة من أكثر الناس، وكان محافظًا على دين أسرته، وكان عارفًا بشرائع الإسلام -فى الجملة- وإليكم هذه الوقائع التى تدل على هذا:

١- فى سنة ١٩٣٥ رأس الأمير شكيب أرسلان المؤتمر الإسلامى الأوربى الذى انعقد بجنيف، وكانت إحدى جلسات المؤتمر فى يوم جمعة، فأوقف الجلسة ليصلى الحاضرون الجمعة، فخطب المصلين فى الفندق وصلى بهم إمامًا.

٢- فى سنة ١٩٣٧ زار حلب، وخطب فى جامعها الكبير قائلاً:

«إن المسلم يستمد استقلاله من القرآن، وإن إيمان المسلم غير الكامل إنما هو إيمان ناقص، ولا توجد الوطنية الصحيحة إلا فى قلب المؤمن العامر بالإيمان».

٣- أرسل بنتيه إلى لبنان ولم يسمح لهما بالبقاء فى جنيف، وذكر السبب لولده غالب عندما اشتاق إلى أختيه وطلب من أبيه إحضارهما فقال:



«إننى أشد منك عذابًا فى فراقهن، لكنى لا أريد أن يخرجن إفرنجيات، فلو ربيتهن فى جنيف لخرجن بدون لغة عربية، وبدون عقيدة إسلامية، وما يعود ممكنًا إعادتهن إلى الحجاب متى ذهبن إلى الوطن».

٤- عند حديثه عن حدود العلاقة بين الدين والدولة مثل لما يحصل فى أوربا من علاقة بين الفاتيكان وإيطاليا، وفى بلجيكا وغيرها فيقول:

«إذن فالمدنية تجتمع مع الدين، والحكومات الشرقية التى تزعم أنها تقطع صلتها بالدين الإسلامى اقتداء بحكومات أوربا -التى تزعم عنها قطع الصلة بالدين المسيحى- إنما هى حكومات تضلل أفكار السذج من رعيتها، وتموه عليهم، وتقصد حربًا وتورى بغيرها، وناشروا دعايتها فى مصر والبلاد العربية كاذبون».

فكان شكيب بهذا من أوائل من رد على العلمانيين فى العالم العربى.

لكن هذا كله لا يعنى أنه برئ من أخطاء شرعية وقع فيها، لكن أقول إنه فى الجملة متدين بدين الإسلام معتز به، مقيم للشعائر، وهذا من مثله فى ذلك الزمان عزيز، والله أعلم.

وبعض ما ذكرته يؤيد ما نقلته فى بداية المقالة عن سنيته، والله أعلم.

همة شكيب:

كان الأمير شكيب أرسلان ذا همة عالية متوقدة تسوقه إلى العمل الكثير بدون كلل ولا ملل، ومن صور تلك الهمة:

١ - رحلاته:

قد ارتحل الأمير كثيراً إلى بلدان عديدة، فى زمن كان الانتقال فيه بالقطار والسيارة والباخرة هو الغالب أما السفر بالطائرة فكان قليلاً؛ إذ لم تنتشر الطائرات آنذاك انتشارها هذا الزمان، فكان قد زار الاتحاد السوفيتى بمناسبة مرور عشر سنوات على بدء الثورة البلشفية، وذلك سنة ١٩٢٧ فسافر بالقطار إلى موسكو، وفى السنة نفسها زار أمريكا بدعوة من عربها للمشاركة فى مؤتمرهم فى ديترويت.

وفى سنة ١٣٤٨/ ١٩٢٩ حج بيت الله الحرام، وأعجبه أن لم ير فى البلاد إلا مسلمين وليس فيها أثر للاحتلال.

وفى سنة ١٩٣٠ ارتحل إلى الأندلس (إسبانيا) ماراً بفرنسا، وكتب عن هذه الرحلة كتابه «تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط».

وارتحل إلى البوسنة والهرسك، وألف فيها كتاباً ما زال مخطوطاً.

وفى سنة ١٩٣٤ اشترك فى الوفد الذى سعى فى الصلح بين الملك عبد العزيز بن سعود والإمام يحيى إمام اليمن، فنجح الوفد فى مهمته وتوقفت الحرب.

وفى السنة نفسها قابل موسولينى الطاغية الإيطالى، وتحدث معه ليخفف قبضته على مسلمى ليبيا.

هذا عدا رحلاته إلى تركيا ومصر وليبيا.



٢- كثرة مؤلفاته ورسائله ومطالعاته:

يعد شكيب من المكثرين جداً فى التأليف، وصاحب همة عالية جداً فى القراءة، وسأورد أمثلة على ذلك:

أ- ما كتبه فى سنة واحدة فقط هى سنة ١٩٣٥ :

الرسائل الخاصة: ١٧٨١، المقالات: ١٦٧، قصيدتان، كتاب عن أحمد شوقى فى ٣٥٠ صفحة، وحواشى ابن خلدون فى ٥٦٠ صفحة، طبع ديوان أخيه: روض الشقيق، وترجم لأخيه، وفسر غريب الديوان، الجزء الأول من كتاب الأندلس، تهيئة ديوانه الخاص للطباعة، تلخيص كتاب ليفى بروفنسال.

وهذا مقدار عظيم فى سنة واحدة.

ب- وقال سنة ١٩٣٠ :

«نحن هنا فى ديار غربة، وجميع أشغالنا نقوم بها بأنفسنا؛ إذ ما معين ولا مساعد، ونكتب بخط بناننا ألفًا وخمسمائة صفحة فى كل شهر؛ إذ ليس عندنا كاتب سر ولا حافظ أوراق، ولدينا أشغال كثيرة مدهشة تتعلق بمهمتنا السياسية التى هى قضية سورية وقضية فلسطين وغيرها من القضايا العربية، وعلينا أن نقرأ الصحف اليومية، وكثيراً من المجلات والكتب، وأن نراقب حركة العلم والسياسة، وحق العلم أن يطلب من المهد إلى اللحد، ولقد بلغنا سن الستين».



جـ- وكان قد حفظ أكثر مقامات الهمذانى والحريرى، وعكف على مقدمة ابن خلدون، واطلع على كتب كثيرة جداً منها: نفح الطيب للمقرى، والنهاية لابن الأثير، وطبقات ابن سعد، ورحلة ابن جبير، والمخصص لابن سيده، ولسان العرب، وتاج العروس، ومعاهد التنصيص للشريف العباسى فى شرح شواهد التلخيص، وكتب الجاحظ وابن المقفع، والأغانى والعقد الفريد، وخزانة الأدب.

د- وترجم كثيراً من الكتب والمقالات من الفرنسية إلى العربية.

هـ- أما مؤلفاته فهى شىء عجيب، عبر عنه الأستاذ محمد رجب بيومى حفظه الله بقوله:

«لو تفرغت لجنة علمية مخلصة لجمع آثار الرجل ما استطاعت بعد طول الكد اللاغب أن تبلغ شيئًا ذا بال فى طريقها البعيد؛ لأن الأمير -كافأه الله أحسن المكافأة- كان يراسل أمهات الجرائد فى مصر وسوريا وتونس والعراق ومراكش والمهجر، ويكاتب أفذاذ الأعلام من ذوى الرأى السياسى والأدبى فى شتى ديار الإسلام، ثم يصدر مجلة باللغة الفرنسية تكون لسان العرب فى دوائر الاستعمار، وقد ذكر أحد أصدقائه أن الرسالة الواحدة من رسائله كانت تتجاوز العشرين صحيفة يكشف فيها الرجل عن دقائق لا يلم بها سواه، وهى بعد رسالة فردية يكتبها الأمير ليقنع صاحبه وحده بوجهة نظره الخاصة فى مسألة عامة!! فماذا نقول فى مقالاته المسهبة التى كانت تحتل الصفحات الأولى دائمًا من أمهات الصحف الذائعة فى الشرق الإسلامى؟ ثم ماذا نقول فى مذكراته الضافية عن استعمار إيطاليا فى طرابلس، وفظائع فرنسا فى



سورية ولبنان، ومأساة اليهود فى فلسطين، ومحاولة الظهير البربرى فى المغرب، ودور الخلافة العثمانية فى الأحداث العربية، ثم تراجمه الضافية لأصدقائه الأعلام ممن فاجأوه بوفاتهم. . . هذا غير مؤلفاته المتداولة، وهى على كثرتها المشرفة ليست غير صبابة من كأس تمتلئ وتفيض.

إن من يقف على آثار الأمير القلمية وحدها لا يدهشه أن يسمع عن ابن جرير والسيوطى وابن الجوزى ما سمع. . . لقد ألف الكاتب الأمريكى لوثروب ستودارد كتابًا قيمًا عن حاضر العالم الإسلامى، قام بترجمته إلى اللغة العربية كاتب فلسطينى قدير هو الأستاذ عجاج نويهض، وشاء إخلاص المترجم أن يعرض على الأمير ليقول كلمة موجزة تكتب فى مقدمته، ولكن الرجل المكافح وجد الكتاب المحدود يتحدث عن العالم الإسلامى كله فى القارات المختلفة حديثًا يتطلب الإشباع والتفصيل، وقد غفل عن أمور كثيرة ما كان لمثل مؤلفه أن يدركها مهما واصل البحث وأحسن التعليل، فدفعته همته إلى التعليق على كل صفحة من صفحات الكتاب بما يجلو الغامض فى زاوية مبهمة أو يرد الحق فى خطأ ناشز، حتى صار الجزء الواحد بعد تعليقات الأمير أربعة أجزاء ضخمة لا نظير لها فيما كتب يومئذٍ عن حاضر الإسلام، وقد نسى الناس كلام الكاتب الأمريكى إذ صار دون التعليقات الضافية بحيث لا يشفى غلة القارئ فى شىء.

أما تعليقاته على تاريخ ابن خلدون فتنحو هذا المنحى من التوضيح والبسط والاستطراد. . . حتى خص الأتراك وحدهم بثلاثمائة صحيفة من ذات الحجم الكبير، وأترك للقارئ أن يتصور تعليقًا عن أمة من الأمم يصل



إلى ثلاثمائة، ولو أن الأمير أفرد مؤلفًا خاصًّا بالأتراك وخرج مستقلاً فى هذا العدد من الصفحات لكان عملاً قائمًا برأسه».

٣- كثرة مناصبه ووظائفه وأعبائه:

كان الأمير شكيب كثير المناصب والوظائف، فقد تولى فى شبابه قائم مقام قضاء الشوف لبنان لمدة ثلاث سنوات ثم توالت عليه المناصب والوظائف، فقد كان عضوًا فى المجمع العلمى العربى (مجمع اللغة العربية) فى دمشق ثم رئيسًا له، وكان رئيس اللجنة الجرمانية الأفغانية التى تألفت فى برلين سنة ١٩٢١، ورئيس النادى الشرقى فى برلين، وعضو الجمعية الآسيوية الفرنسية، وأمين سر المؤتمر الإسلامى الكبير الذى انعقد بمكة المكرمة، وكان عضوًا فى كثير من الوفود التى عقدت مؤتمراتها فى أوربا دفاعًا عن قضايا العرب والمسلمين، وكان مفتشًا لبعثات الهلال الأحمر المصرى، وكان نائبًا عن حوران فى مجلس المبعوثان العثمانى، وإذا نظر الناظر إلى هذه الأعمال والأعباء مع أعبائه التى ذكرتها فى الفقرتين السابقتين علم أى صنف من الرجال كان شكيب، وأى همة كانت له.

٤- استمرار العمل والمطالعة على اعتلال فى صحته:

كان جسد شكيب قد كَلَّ وتعب من كثرة العمل والجهد فى المطالعة، لكنه لم يتوقف قط، وقال عن نفسه:

«بلغنا سن الستين، وأصبحنا مضطرين لمداراة صحتنا، وتجدنا نغسل أعيننا بمغلى البابونج مرتين وثلاثًا كل يوم بدون فتور؛ تسكينًا للحريق الذى يصيبها من فرط الكتابة والمطالعة».



وكان مريضًا بتصلب الشرايين، والكلى، ولما بلغ السابعة والخمسين اضطر للاستعانة بكتاب يملى عليهم فيكتبون، وقد منع بعد ذلك من الكتابة بأمر الطبيب بسبب ضعف البصر وارتعاش اليد.

٥- معرفته باللغات:

كان يتقن العربية جداً بل يعد فى الصف الأول من أدبائها وعلمائها، ويتقن التركية والفرنسية، ويعرف الألمانية معرفة متوسطة، ويعرف الإنجليزية ومعرفته بها أحسن من معرفته بالألمانية، وقد ساعده إتقانه للفرنسية على الاطلاع على علوم وفنون وآداب كثيرة لم تكن متاحة لعارفى العربية وحدها آنذاك.

- مكانة شكيب:

ذكر الأستاذ أحمد الشرباصى فى كتابه: «شكيب أرسلان: داعية العروبة والإسلام» خبرًا له دلالته، فقال:

نشرت مجلة الضياء الهندية خبرًا مطولاً عن مجمع انعقد فى سنة ١٩٣٥ ليبحث أى الرجال من المسلمين يستحق بأن يوصف بأنه أعظم رجل فى العالم الإسلامى اليوم؟ وقد حضر الاجتماع عدد كبير من الأدباء والمفكرين، وخطب كل واحد منهم يؤيد رأيه فيمن يكون أرجح ميزانًا بين رجال الإسلام المعاصرين، وترددت أسماء محمد إقبال وشكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا وأبو المكارم الدهلوى وسليمان الندوى وعبد الكريم الخطابى والسيد أحمد الشريف السنوسى ومولانا محمد على وحسنى أحمد المهتدى وغيرهم، ولكن الأمير شكيب أرسلان فاز بأكثرية الأصوات فى هذا الاجتماع.

وهذا يدل على مكانة شكيب عند العجم، ولا شك أن مكانته عند العرب أعظم وأجل، لكن هذا الجيل اليوم لا يكاد يعرف عنه شيئًا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

- وفاته:

انتقل إلى وطنه لبنان قبل وفاته بشهور، وسعد به إذ رآه مستقلاً، وكان ذلك سنة ١٩٤٦، لكنه لم يبقَ سوى بضعة أشهر ثم توفى بعدها ليلة الخامس عشر من المحرم سنة ١٣٦٦/ ٩ ديسمبر ١٩٤٦، وصلى عليه فى الجامع العمرى ببيروت.

وقبل أن يموت بأيام أوصى وصيته الأخيرة، وكان فيها: أوصيكم بفلسطين، وهذا قبل احتلالها بسنة وبضعة أشهر، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، وعوض الأمة عنه خيراً.

مزايا شكيب فى سطور:

كان الأستاذ أحمد الشرباصى -رحمه الله- فى دراسته عن شكيب قد ذكر مزاياه، وهأنذا أورد بعضها فى سطور موجزة مثل العناوين:

١- شارك فى الإحياء اللغوى، حيث استعمل مفردات كانت مهجورة، وبذل جهودًا فى التعريب، ووضع مصطلحات عربية للألفاظ الاصطلاحية الإفرنجية، وكان هذا عملاً مهمًّا، بل هو من بواكير التعريب، وله نظريات فى الأدب واللغة جليلة، وشارك فى إحياء الشعر العربى.



٢- بذل جهودًا كبيرة فى الترجمة عن الفرنسية والتركية، وكان بهذا أحد الرواد فى هذا الباب.

٣- بذل جهودًا كبيرة فى إحياء تاريخ العرب وتاريخ الإسلام وتتبع مآثر العرب والمسلمين فى الشرق والغرب، وعرَّف بحاضر المسلمين فى زمانه.

٤- شارك فى نشر التراث العربى وتحقيق المخطوطات.

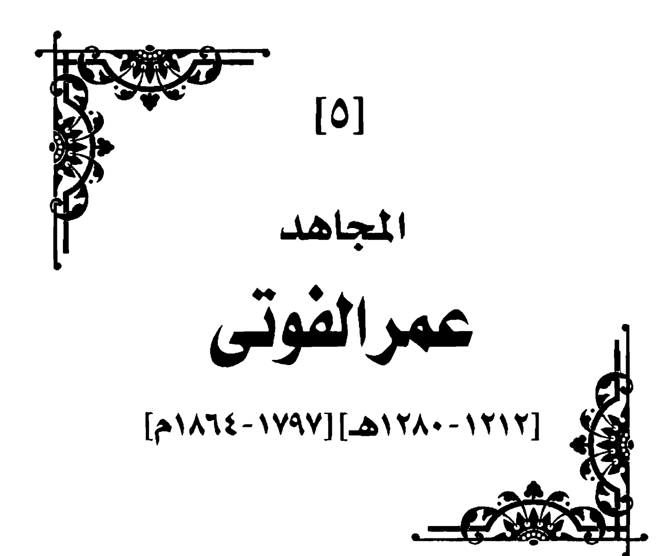
٥- له آراء قيمة عن السياسة، ومشاركة حسنة فيها كما بينت فى أثناء المقالة.

٦- له رحلات جليلة كان لها أثر كبير فى تحريك الراكد من الأحوال العربية والإسلامية آنذاك.

هذا وقد ذكرت فى أثناء المقالة غير ذلك من المزايا، وإن كان من شىء بقى فهو اعتزازه الكبير بالعربية والإسلام.

تلك كانت سطورًا من سيرة الأمير شكيب الجليلة المطولة، وهى لا توفيه حقه لكن تظهر شيئًا من عمله وجهده وجهاده وهمته، وهذا مما يحتاجه أهل العصر والأجيال القادمة، فرحمه الله وغفر له.





[٥]

المجاهد

عمر الفوتي

[١٢١٢-١٢٨٠هـ] [١٧٩٧-١٨٦٤م]

لقد كان فى التاريخ الإسلامى الحديث رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعملوا طويلاً من أجل الذب عن حياض الإسلام، ولم يبخلوا بشىء فى سبيل ذلك، فكان لهم مع أعداء الإسلام صولات وجولات أظهرت صورًا جليلة من البطولة والكفاح، ومن هؤلاء العظماء عمر بن سعيد بن عثمان تال الفُوتى، الذى أنشأ دولة على مساحة كبيرة من حوض نهر النيجر وحوض نهر السنغال فى غرب إفريقيا فى دولتى السنغال ومالى حاليًّا، وذلك فى القرن الثالث عشر/ التاسع عشر الميلادى.

كان عمر الفُوتى صوفيًّا تيجانيًّا لكنه لم يكن من قَعَدة الصوفية المثبطين، ولم يكن من الغالين، لكنه كان صوفيًّا معتدل التصوف، ومن المجاهدين فى سبيل الله تعالى، وقد كان لمجاهدى الصوفية أثر عظيم فى صد الاحتلال والاستخراب عن بلاد الإسلام، وقد رأينا هذا فى السنوسية والنقشبندية والرحمانية وغيرها من الطرق التى آثرت الجهاد، ولم يكن فيها من ضلالات البدع الغالية ما كان فى الطرق الصوفية الأخرى.

والطريقة التيجانية ربت رجالاً عظماء كان لهم أيادٍ بيضاء فى الجهاد، وفى بعض الأحوال انتسب إليها عملاء للاحتلال وموالون له على وجه عجيب، وهذا أمر معلوم فى الجزائر على الأقل، فقد كان لبعض هؤلاء ولاء مُخزٍ للاحتلال الفرنسى، والله أعلم.

ولد عمر الفوتى ١٢١٢/١٧٩٧ فى قرية حَلْوار -الواقعة على الضفة



الغربيـة من نهر السنغـال -التى تبعد حـوالى أربعين مـيلاً عن بودور على الحدود السنغالية الموريتانية.

وكان والده صـالحًا عالمًا فنـهل الولد من علم أبيه درس على يديه الفـقه وصحيح البخارى ومسلم.

وحفظ القرآن فى الكُتاب وهو ابن ثمانى سنين.

ولما بلغ العشرين سنة من عمره ارتحل إلى فوتا جالون- فى السنغال اليوم - واستقر فى مدينة ساتينا قـرابة عشر سنوات يُدَرّس القرآن الكريم والسيرة النبوية المطهرة للأطفال.

ثم توجة إلى الحجاز للحج مع أخيه على، فسار إلى فَزّان أولاً ثم دخل القاهرة وناظر بعض علمائها بحضرة وكيل المغاربة محمد المغربى، فلما رأى تفوقه فى العلوم أعطاه مالاً وزادًا وأذن له بـركوب النهر للحج، فوصل إلى مكة المكرمة والتقى بشيـخة محمد الغالى وحجا مـعًا، ثم توجّها إلى المدينة فـدخلاها فى المحـرم من سنة ١٢٤٢، ومكث مع شـيخـة ثلاث سنوات، توجـة أثناءها إلى القـاهرة ثم إلى بـيت المقـدس ثم عاد إلـى المدينة المنورة النبوية ثم حج مرة أخرى، وتزوج ابنة إمام الحرم المكى.

ثم قفل عائدًا إلى مصر فمكث فيها بضعة أشهر من سنة ١٢٤٦، والتقى بأهله فيهـا وكان قد تركهم منذ ثلاث سنوات عندما قـدم إلى القاهرة مريدًا الحج، ثم توجـه إلى فزان ومنهـا إلى بَرْنو -من أرض تشاد الـيوم- فقـابل سلطانها عمـر الذى حسده وسعى فى قتله فنجـاه الله -تعالى- ثم صَلُح ما بينهما.

ومن هناك انتقل إلى سوكُوتو عاصمة الخلافة الفُودية -التى تحدثت عنها فى ترجمة عثمان بن فودى فى الجزء الأول من هذه السلسلة- وهى دولة جليلة بقيت مائة عام حطمها الإنجليز مطلع القرن الرابع عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، ولقى الحاج عمر الفوتى -كما كان يسمى بعد عودته من الحج- فى سُوكُوتو خليفة المؤمنين الشيخ محمد بَلُّو بن عثمان فودى، وجمع فى سوكوتو بين الدراسة والتدريس، وشارك فى غزوات محمد بَلُّو جعله قائدًا لجيشة لما رآه ميمون النقيبة مظهرًا منصورًا، وكان يخطب فى الجنود ويرفع معنوياتهم، وتعلم طرائق الحرب التى اشتهر بها جيش الفوديين.

وأطلعه محمد بَلُّو على أسرار دولته، وجعله بجواره فى سائر أعماله، ومكث معه سبع سنوات، وزوجه ابنته.

واطلع على الإنتاج العلمى الضخم الذى تركه عثمان بن فودى وأخوه عبد الله فى شتى المجالات الشرعية خاصة أمور السياسة والحكم.

وفى سوكوتو تعلم طرق الحكم، واستفاد من الغزوات الحربية فى بناء علومه العسكرية، فكوَّن الخبرة اللازمة لإقامة دولته الإسلامية بعد ذلك.

وقد استطاع جمع مال جزيل من غزواته مع الفوديين فاشترى به رفيقًا وتاجر به، مما مكنه من تكوين ثروة طائلة كانت معينة له فى إنشاء دولته بعد ذلك، وفى سوكوتو ألف كتابه: «الرماح».

ولما مات الخليفة محمد بلو سنة ١٢٥٣ بقى عمر الفوتى فى سوكوتو



سنة واحدة ثم غادرها إلى بلاده، وقد اكتسب من هذه الرحله الطويلة أمورًا منها:

١- العلم الشرعى الذى مكنه من تبوُّؤ المكانة الجليلة فى بلاده، وأذعن له الناس.

٢- الوعى بمخططات الأعداء وأطماعهم فى بلاد الإسلام عامة وفى إفريقيا خاصة.

٣- الخبرة الجهادية العسكرية.

٤- الخبرة فى شئون الحكم.

٥- الاطلاع عن كثب على أحوال المسلمين والوثنيين فى وسط إفريقيا وغربها، وعرف أن المسلمين مشتتون ومتفرقون فى مناطق كثيرة.

ومن أعظم ما تأثر به الحاج عمر الفوتى من بقائه مدة فى الدولة الفُودية هو تأثره بآراء عثمان بن فودى الفقهية وعلى رأسها أنه يَعُدّ الموالين للكفار من المسلمين كفارًا يجب جهادهم، واعتمادًا على هذا المبدأ قاتل الحاج عمر عدوه أحمد بن أحمد وقتله كما سيأتى.

فعزم -لأجل كل ذلك- على تكوين دولة إسلامية تقف أمام مطامع النصارى وتنتشر الإسلام وتحارب الوثنية.

مراحل إنشاء الدولة:

فى سنة ١٨٣٩ وصل الشيخ عمر الفوتى إلى حَمد الله عاصمة ماسينا -



وهى تقع اليوم فى مالى - فى عهد السلطان شيخو أحمدو بن حَمَدِ لُبُ الذى حاول قتله لكن الله تعالى نجاه.

وغادرها متوجهًا إلى سيجو Segou وحاول ملكها -وكان كافرًا- أن يقتله لكن الله نجاه بفضله، وكل محاولات قتله السابقة كانت لتوجس الحكام منه خيفة على ملكهم لِما رأوا من مواهبه واستعداده للجهاد.

ثم غادرها سنه ١٨٤٠ وتوجه إلى فوتو جالون وأقام فى عاصمتها تيمبو timpo -وهى فى غينيا اليوم- وقيل سكن فى جقنكو أربع سنين، وتدخل فى إصلاح أزمة الحكم التى نشأت بعد وفاة السلطان يحيى مما جعله يشتهر بين الناس.

ثم بعد قضائه أربع سنين هنالك توجه إلى موطنه فُوتا طُور، وهى بالقرب من الحدود السنغالية الموريتانية اليوم، وزار مسقط رأسة حلْوار، فوصلها سنة ١٢٦٢/١٨٤٦ بعد غياب عشرين سنة تقريبًا، فمكث فيها ستة أشهر ثم غادرها إلى فوتا جالون مرة أخرى.

وقد حدثت له حوادث كثيرة هنالك ، ودار فى قرى وبلدات كثيرة إلى أن استقر فى موضع يسمى دينغراوى، وهى جزء من مملكة ينْبَ سَاخُ وهو ملك وثنى لكنه سمح للشيخ بالبقاء فى مقابل صاع من الذهب كل عام، فأقام بها ثلاث سنوات ثم بدأ الجهاد، فكان جملة ما مكثه منذ رجوعه من الحج بداية الجهاد ثنتى عشرة سنة.

وكان قد غزا بنفسه ثنتين وثلاثين غزوة حتى استشهاده، والسرايا التى أرسلها خمسين سَرِيّة فانظر إلى همته فى الجهاد رحمه الله تعالى.



خطوات قطعها فى الجهاد:

١- أقام الحاج عمر فى منطقة من المناطق فوتا جالون بالقرب من الحدود المالية السنغالية الموريتانية، وأنشأ مركزًا للتعليم وفد إليه أعداد كبيرة من الراغبين فى تعلم العلوم الشرعية، وكان من هؤلاء من برع فى العلوم وتميز عن أقرانه فأرسلهم الحاج عمر إلى المناطق المجاورة للدعوة إلى الله ونشر الإسلام فى القبائل الوثنية، وتنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم من قبل الفرنسيين ودعواتهم إلى الجهاد، وربى هؤلاء على الاستعداد للجهاد والذود عن البيضة ورد المتعدين.

٢- استعد للجهاد بتخزين المواد اللازمة له من سلاح ومؤنة وجند الرجال، وظل فى هذه المرحلة قرابة عشر سنوات.

٣- أعلن الجهاد فى سنة ١٢٦٩/ ديسمبر ١٨٥٢ بعد أن هاجمه ملك الوثنيين يمبا ساخو Yimba Sakho، وسقطت مدينة تامبا، وحاز المجاهدون على غنائم كثيرة من الذهب، وهذا أدى إلى اشتهار الشيخ عمر الفوتى، ومهادنة سلطان فوتا جالون له وقد أدى هذا إلى استجابة أعداد كبيرة من الفوتيين لدعوة الحاج عمر، ولحقوا به للجهاد فى سبيل الله تعالى فى مدينة دينغراى Dinguiray فكون منهم جيشًا كبيرًا حارب بهم الوثنيين فى سيجو وفى ماسينا وفى غيرها، ودخل كثير من الوثنيين فى دين الله تعالى، ومن لم يقبل منهم الإسلام حاربه.

٤- استولى على القرى والبلدات والمدن واحدة تلو الأخرى حتى استقر له



الأمر فى مناطق كبيرة من مالى والسنغال، ومن أهم وقائعه استيلاؤه على سيجو Segou وتولية ابنه أحمدو تال عليها.

واستولى على ماسينا -على أنها كانت مملكة مسلمة- لأنها ساعدت إمبراطور سيجو، بجيش يقدر بثلاثين ألفًا وهذه خيانة، ونقض لعقيدة الولاء والبراء، لأن إمبراطور سيجو كان وثنيًا، وقبض على أحمدو شيخو حاكم تال ماسينا وأعدمه، وعين الشيخ عمر ابنه أحمدو تال حاكمًا عليها وذلك سنة ١٢٧٧/ ١٨٦٢م.

٥- بنى المساجد والمدارس، التى ظل بعضها مركز إشعاع كبير حتى بعد تقويض دعائم الدولة الفوتية مثل المدرسة التى فى قرية بكيجوى.

٦- استطاع أن يجذب عددًا من الموالين له من خارج المنطقة، ومن أبرزهم الشيخ أحمد العلوى التيجانى الشنقيطى الذى وقف معه فى جهاده، وترجم له، ونشر أخباره فى شمال المغرب، ومنهم الشيخ محمد بن محمد الصغير العلوى الشنقيطى الذى جاهد مع الحاج عمر -على كبر سنه- ودافع عنه شعرًا ونثرًا، ومنهم الشيخ أحمد بن بدى العلوى الذى دافع عن جهاد الشيخ عمر الفوتى ورد الشبهات عنه.

وهذا يدل على أن الشيخ نجح فى جذب الكبراء والعلماء من خارج المنطقة إلى جهاده وعمله.

٧- أقام دولته على الشريعة الإسلامية، وحرم الخمر وحطم الأصنام، وأشاع العدل بين الناس.

٨- هاجم الفرنسيين، ثم عقد معاهدة معهم سنة ١٢٧٦/ ١٨٦٠م أى قبل موته بأربع سنين.



وكان العداء مع الفرنسيين قد استحكم منذ سنة ١٨٤٥ حين طلب الشيخ منهم السلاح فلم يعطوه، ثم عمل الفرنسيون على إثارة الحكام الوثنيين والمسلمين ضده، بل العجيب أنهم استمالوا بعض الفقهاء ومنهم قاضٍ اسمه أبو المغداد، وكان قاضيًا بسانت لويس، وعمل مع الإدارة الفرنسية مترجمًا منذ سنة ١٨٥٥، واستمر ذليلاً لهم إلى وفاته سنة ١٨٨٠، وكان هذا الفقيه يطعن فى الحاج عمر ويشكك فى جهاده، وهكذا تنعدم عقيدة الولاء والبراء فى نفوس الضعفاء ولو كانوا فقهاء.

وهاجم الشيخ عمر الفرنسيين فى عدة وقائع لكن كانت قوة الفرنسيين أكبر بكثير، خاصة أن الوثنيين تمالأوا مع الفرنسيين عليه، وساعدهم بعض الحكام فى المسلمين وهذا لضعف عقيدة الولاء والبراء لدى هؤلاء الحكام، ولخوفهم من الشيخ عمر الفوتى، فرأى الشيخ عمر أن يهادن الفرنسيين حت يتفرغ لإقامة دولته بعيدًا عنهم لكن لم يعاهدهم فى معاهدة مكتوبة، إنما صنع ذلك ابنه أحمد من بعده، وجعل الفرنسيون منطقة يسار نهو النيجر إلى الشرق للشيخ وما كان يمين النهر إلى الغرب فهو لهم، وتعاهدوا ألا يقع أحدهما على الآخر.

وكان الشيخ عمر يعلم أن الفرنسيين إنما يريدون ابتلاع كل المنطقة، وإنما يعتقدون المعاهدات للاستعداد والتهيؤ للحرب مرة أخرى، فمعاهداتهم لا تساوى المداد التى تكتب به، فقد احتلوا تلك المناطق بعد موت الشيخ بمدة طويلة، وذلك سنة ١٣٠٨/ ١٨٩١، وبقيت فى أيديهم ٧١ سنه إلى أن أذن الله بانقلاعهم سنة ١٣٧٩/ ١٩٦٠، ولم يخرجوا إلا ليتفرغوا لمواجهة الثورة الجزائرية التى كانت فى أوج قوتها آنذاك.



مؤلفات الحاج عمر:

كان له مـؤلفات عـديدة منها: النصـح المبين، المقـاصد السنيـة، تذكرة الغافلين، فـلاح الطالبين، تذكرة المسـترشدين، رماح الحـزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، سيوف السعيد، سفينة السعادة.

صفاته الشخصية:

كان ذكـيًّا، عابدًا، زاهدًا، صـاحب همة عاليـة وإرادة قوية، وحمـاسة كبـيرة، وكان له من صـفات القيـادة الشيء الذى هيأه لإقـامة دولة كبـيرة ورعايتها.

وكان خطيبًا مفوهًا يأسر السامعين، وشاعرًا وأديبًا.

وساعدته رحلاته على الاطلاع الواسع على أحوال العالم الإسلامى على العكس من حال أغلب أهل زمانه وبيئته.

استشهاد الشيخ:

عقب سقوط ماسينا تحالف ضد الشيخ عمر زعماء المنطقة، ومنهم بالوبو Balobo عَمّ أحمدو شـيخو الذى أعدمه الحـاج عمر كمـا ذكرت من قبل، وأخوه عبد السلام وكانا قد هربا من ماسينا بعـد استيلاء الحاج عمر عليها، وأحمـد الكنتى البكائى الذى كان رئيس الطـائفة البكائية فى تنـبكتو - فى مالى اليوم- وانتهى الأمر إلى محاصـرة الشيخ عمر فى مدينة حَمّد الله فى ماسينا حيث حوصر ثمانية أشهر وثمانية عشر يومًا، ثم نجح فى الهرب منها مع بعض أبنائه وقواده، ولجأ إلى غار فى جبل فى بانجفرا فحوصر فى قلعة



هنالك، فأضرم أعـداؤه النار فمات اختناقًا، وقـيل إنه هو الذى أمر بإضرام النار حتى لا يقع فى أيديهم وأنا أستبعد هذا، فالله أعلم بما كان من ذلك، وقد وقع هذا فى يوم الجمعة ٣ رمضان/ ١٢٨٠، ١٢فبراير ١٨٦٠.

كان الشـيخ المجاهد عمر الفـوتى قد عين ابنه أحمـدو تال نائبًا عنه فى سيجـو، وطلب من أبنائه أن يطيعوه ويوالوه من بعده، وأخـذ عليهم بذلك القسم ثـم طلب منهم ومن سائر وجـهاء بلاده إعـادة البيعـة لابنه لما دخل ماسينا، لكن النزاع دب بين أبناء الشيخ بعضـهم بعضًا، وبين بعض وجهاء قادته بعد وفاة الشيخ عـمر الفوتى، وتفككت الدولة إلى أجزاء سيطر على كل منها قائد من قواد عمر الفوتى، وظل أحمدو تال بن عمر الفوتى يدعى السيطرة على كل دولة والده، وغيَّر لقب الخلافة إلى لقب أمير المؤمنين سنة ١٢٨٤/١٨٦٨ أى بعـد وفـاة والده بأربع سنوات، لكنـه ظل فى نزاع مع إخوته.

وأما منطقـة كارتا فقد حكمـها مصطفى أحد عـبيد الشيخ عمـر الفوتى وذلك من سنة ١٨٦٠، أى قبل وفاة الشيخ عمر بأربع سنوات.

وحصل خلاف بين الأطراف المتـحالفة للقضاء على الشيخ عـمر، حيث اختلف بـالوبو عم أحمدو شـيخـو مع أحمـد الكنتى البكائى، وذلك لأن البكائيين طلبوا من الماسينين ورئيـسهم بالوبو أن يكون لهم السيطرة والحكم فى ماسينا، وعللوا ذلك بأن الماسبنيين كانوا تحت حكم الشيخ عمر الفوتى، وأنهم أنقذوهم من حكم الفوتيين.



وحكم أحمد التجانى -ابن أخ الشيخ عمر- ماسينا بعد استشهاد الشيخ، وظل بها مستقلاً إلى وفاته سنة ١٨٨٧، واستفاد من الخلاف بين أحمد الكنتى وبالوبو، وتولى بعده أحمد المدنى إلى سنة ١٨٩٠، وفى عهده صارت ماسينا مركزًا مهمًّا من مراكز تعليم الإسلام.

لكن الفرنسيين كانوا هم المستفيد الأكبر من كل تلك المؤمرات والخلافات، واستولوا على كل المنطقة بعد ذلك مستفيدين من الإذن العام الذى أعطاهم إياه الأوربيون بعد معاهدة برلين سنة ١٨٨٤.

نتائج حركة الشيخ الحاج عمر الفوتى:

وهكذا انتهت دولة الشيخ عمر الفوتى عقب جهاد طويل، لكنه حَسْبُهُ أنه صنع التالى:

١- أنشأ كيانًا وقف به فى وجه الأطماع الفرنسية مدة طويلة نسبيًّا.

٢- جمع كثيرًا من أفراد القبائل العديدة المنتشرة فى المنطقة، ووحدهم تحت لوائه، وكانت المنطقة تئن من الفرقة والخلاف وكثرة الدول الصغيرة الضعيفة، فأنشأ دولة كبيرة نسبيًّا جمعت أشتاتًا من الناس.

٣- نشر الإسلام فى تلك الأصقاع الوثنية.

٤- قضى على بعض البدع المنتشرة فى المنطقة.

ولو تفاهم مع الحكام المسلمين فى المنطقة أو تكاتف معهم لتغير التاريخ هنالك، لكن أبت علة العلل وهى الاختلاف بين المسلمين إلا أن



تهدم أركان هذه الدولة، وتفسح الطريق أمام فرنسا للاستيلاء على كل المنطقة بعد ذلك.

وبقى مصير تلك الدولة الإسلامية منبهًا ومذكرًا للمسلمين فى كل مكان أن عاقبة الاختلاف وخيمة، وأن التفرق والحرب بين المسلمين هو الذى مكن الكفار من رقابهم فى كل مكان، وأن عقيدة الولاء والبراء إذا اختلت بتعاون حكام المسلمين مع الكفار من الفرنسيين والوثنيين ضد إخوانهم المسلمين فإن عاقبة ذلك وخيمة جداً، والله المستعان.

قال عنه الفرنسيون:

قال عنه أحد الضباط:

«لقد كان الحاج عمر أكبر ممهد لمن أتوا بعده من الزعماء الإفريقيين الذين قاوموا -على غراره- الاستعمار الفرنسى، لأنه كان يمثل الطموح والحماس الصوفيين، وقد استطاع بنفوذه وقوة شخصيته أن يقوى رابطة الوحدة الإفريقية بين أتباعه المنتسبين إلى القبائل المختلفة»[١].

وقال عنه مولارد:

«لولا الاستعمار الفرنسى لنجح الحاج عمر فى إقامة دولة واحدة إسلامية فى إفريقيا الغربية»[٢].

---

(١) «ذكرى مرور مائتى سنة على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفوتى تال»: ندوة دولية: ص٤١-٤٢.
(٢) المصدر السابق.



وقال عنه بوبكر بارى:

«إن الحاج عمر هو -بلا شك- أجلّ من تابع حمل مشعل الحركة الإصلاحية التى لم تفتأ منذ ناصر الدين[1] فى القرن ١٧ تهز الوضع السياسى والاجتماعى والدينى فى منطقة سنغامبيا»[2].

«وقد كان الحاج عمر يحلم بتأسيس إفريقيا الإسلامية التى تمتد من تشاد إلى السنغال، ومن مرتفعات آداماوا إلى مرتفعات فوت جالون وفوت تور»[3].

وأختم بنص معبر عن جهاد الشيخ عمر الفوتى وأمثاله فى إفريقيا السوداء للفرنسيين؛ فقد قال برنوا مورى فى مؤلفه «الإسلام والنصرانية فى إفريقيا»: «إن الكولونيل أرشيغارد بأخذه جنة وبند جاقرا أوقف غارة التيجانية فى هذا القسم من إفريقيا، ويسّر فتح السودان [4] بين يدى المدينة الأوربية . . . مما خلّد أعظم الشرف للعساكر الفرنسيين، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل فى بوايتيه[5]، بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل إفريقيا لولا هذا الظفر»[6].

❀❀❀

---

(١) وهو مصلح موريتانى توفى سنة ١٦٧٧م.
(٢) المصدر السابق: ٥٧.
(٣) المصدر السابق ببلاد التكرور.
(٤) يقصد بالسودان بلاد السُود من السودان إلى المحيط الأطلسى، ويعبر عنها.
(٥) وهى المعركة التى جرت بينه وبين عبد الرحمن الغافقى فى الأراضى الفرنسية بالقرب من باريس.
(٦) «ذكرى مرور مائتى سنه على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفوتى تال»: ندوة دولية: ٢٧.

[٦]

الداعية الأديب

محمد البشير الإبراهيمي

[١٣٠٦-١٣٨٥هـ] [١٨٨٩-١٩٦٥م]





إنه لمن حق الجزائريين أن يفخروا برجلين: أحدهما قد ذهب بالشهرة وعرفه الناس وهو الشيخ عبد الحميد بن باديس، والآخر قد طُوى فى ثنايا الاستتار فلم يعد يعرفه إلا قليل من الناس وهو البشير الإبراهيمى، هذا وقد ابتدآ الجهاد معًا، وضمتهما مسيرة واحدة لكن الله تعالى كتب الاشتهار لابن باديس وكتب الأجر لهما معًا. إن شاء الله تعالى.

ولد الشيخ محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمى سنة ١٣٠٦/ ١٨٨٩ فى سطيف من أعمال قُسَنْطينة، من أسرة من آل بيت رسول الله ﷺ وينتهى نسبه إلى الأدارسة.

تعهده عمه العالم محمد المكى الإبراهيمى منذ صغره بالدراسة والنَّهْل من الكتب الشرعية واللغوية وسائر علوم الآلة، وكان يُعْنى به حتى فى أوقات الترويح عن النفس فكان يقول عنه: إنه لم يكن يُخْلينى من التلقين العلمى حتى حين كنت أخرج معه فى طريق الفسحة والراحة، ولما مات عمه ناب عنه فى التدريس وعمره قرابة أربع عشرة سنة!!

وهذا نبوغ عجيب وسن مبكرة للتصدر، وظل على ذلك حتى بلغ العشرين فرأى أن يشد الرحال إلى مصر لطلب العلم فمكث فيها ثلاثة أشهر تردد أثناءها على دروس العلماء، والتقى الشاعرين أحمد شوقى وحافظ إبراهيم، ثم شد الرحال إلى المدينة النبوية المنورة -على ساكنها أفضل الصلاة والسلام- للقاء والده الذى هاجر إليها سنة ١٩٠٨ فرارًا من الفرنسيين فوصلها سنة ١٩١١ بالقطار، ولقى هناك العلماء، لكن لم يعجبه حال



أكثرهم، وقال: «طفت بحلق العلم فى الحرم النبوى كثيراً فلم يَرق لى شىء منها، وإنما هى غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شىء»، لكنه سُرّ بعالمين هما: حسين أحمد الهندى، والشيخ عبد العزيز الوزير التونسى، وفى المدينة المنورة شارك الشيخ فى الحياة العامة وعبر عن ذلك بقوله:

«هذا الطور هو الذى تفتح فيه ذهنى لأعمال عامة، فشاركت برأيى فى الآراء المختلفة بالسياسة العامة بالدولة العثمانية وعلاقة العرب بها، وفى الإصلاح العلمى بالحرم المدنى، وباشرت هذا الأخير بنفسى مع ثلة من شبان الطلبة المتنورين، وقد كاد ينجح لولا أن فاجأتنا الحرب العالمية الأولى، وثورة الشريف حسين بن على التى كنت من المقاومين لها بقلمى ولسانى، ثم كانت هى السبب فى إجلاء سكان المدينة إلى الشام والأناضول».

لكن نقطة التحول فى حياته هى لقاؤه بشيخ الجزائر وكبيرها عبد الحميد بن باديس، الذى كان يزور المدينة النبوية المنورة آنذاك، وكان لقاؤهما للمرة الأولى، فتجاذبا الحديث عن الجزائر وكيفية إخراجها من محنتها وابتلائها بالمستخرب الفرنسى، وقد قال البشير موضحاً ما كان يجرى بينهما من حديث:

«كنا نؤدى فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة فى المسجد النبوى، ونخرج إلى منزلى فأسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية الثلاثة أشهر التى أقامها الشيخ بالمدينة المنورة، وكانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التى تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التى كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى فى



مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها فى الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالى من سنة ١٩١٣ ميلادية هى التى وُضعت فيها الأسس الأولى لجمعية علماء المسلمين الجزائريين التى لم تبرز للوجود إلا فى سنة ١٩٣١»، فانظروا -رعاكم الله- إلى هذه الهمة العالية فى السهر على مصالح المسلمين وتفقد شئونهم والتخطيط لإصلاح أحوالهم، وقد عاد ابن باديس إلى الجزائر قبل عودة البشير بسبع سنوات، فكان له قصب السبق فى نشر التعليم الإسلامى والعربى فى الجزائر، وإعداد النواة التى أسست فيما بعد جمعية علماء المسلمين الجزائريين.

وبقى الإبراهيمى فى المدينة النبوية المنورة إلى سنة ١٩١٧، ثم خرج منها قسرًا حين أمرت الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة عنها وهو ما عرف فى التاريخ بـ«سَفَر بَرْلك»، وذلك بسبب اشتداد ثورة الشريف الحسين بن على زمن الحرب العالمية الأولى، فغادر الإبراهيمى وأسرته المدينة إلى دمشق التى دخلها شتاء سنة ١٩١٧، واختلط بعلمائها وكبرائها فكان كما قال: «لا نفترق من اجتماع إلا على موعد لاجتماع»، ودرّس تحت رقبة النسر الشهيرة فى الجامع الأموى الحديث والتفسير، وكان يملى الحديث من حفظه بإسناده ثم يكُرّ عليه بالشرح، وجذب الناس إليه بطريقته وسمته، ودرّس فى مكتب عنبر وهو أول ثانوية فى سوريا، وكان يُنتخب لها أحسن الأساتذة وأبرز العلماء، وقد تأثر به الطلبة، وكان منهم د. جميل صليبا الذى قال: «أعجبنا بسعة علمه، وقوة ذاكرته، واستقامة منهجه: لأنه كان يملى علينا قصائد المتنبى والبُحترى وأبى تمام من حفظه من أول القصيدة إلى آخرها،

ويقرب معانيه منا بالتفسير المحكم، والشرح الدقيق، والتعليل الأدبى الجميل، حتى ولّد فى نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها». وكان يغش الندوات العلمية والمجالس الأدبية، وكان الحاضرون يحبونه لأنه كان متواضعًا، حسن الطويّة، فَكِهًا مع الخاصة، يُسمعهم نوادر الأعراب وقصصهم، وقد قال البشير عن أيامه فى دمشق:

«أشهد صادقًا أنها هى الواحة الخضراء فى حياتى المجدية، وأنها هى الجزء العامر فى عمرى الغامر، وأننى كنت فيها أَقَرَّ عينًا وأسعد حالاً».

وقد تزوج فى دمشق فى سن التاسعة والعشرين بفتاة تونسية من أصل تركى كانت أسرتها فد خرجت من المدينة زمن خروج الإبراهيمى وأسرته، وأنجب الشيخ منها ولدًا ذكرًا لم يلبث أن مات، وقد أنجب فى الجزائر بعدما عاد إليها محمدًا وأحمد وبنتين، وفى دمشق دفن أباه وابنه وحماه فى مقبرة الدحداح، وفى هذا يقول:

«ويا تربة الدحداح بوركت من تربة، لا يذوق الغريب فيها مرارة الغربة، ولازلت مسقطًا لرحمات الله ، إننى أودعت ثراك أعز الناس علىّ: أبى وابنى وجَدّى أولادى فاحفظى الودائع إلى يوم تُجَزى الصنائع..».

ولما عاد البشير إلى الجزائر سنة ١٩٢٠ لقى ابن باديس واتفقا على بدء العمل، وكان ابن باديس مستقراً فى أقصى الشرق الجزائرى فى قسنطينة، والبشير فى وهران فى الغرب الجزائرى، وهكذا اكتنف العالمان الكبيران الجزائر من طرفيها وابتدآ العمل الجاد لتكوين نواة جمعية علماء المسلمين



الجزائريين، ثم آثر البشير أن ينتقل إلى تلمسان وهى قريبة من وهران لكن تلمسان أصغر منها وأهدأ، وهناك أخذ الشيخ البشير فى تدريس الطلاب والالتقاء بالعامة فى زيارات يعقدها يوم الجمعة فى قرى وبلدات ذلك الإقليم، ولم تنقطع صلته بأخيه ابن باديس على بعد المسافة بينهما وصعوبة فى وسائل المواصلات آنذاك، وقد قال البشير: «فى هذه الفترة -١٩٢٠ إلى ١٩٣٠- كانت الصلة بينى وبين ابن باديس قوية، وكنا نتلاقى كل أسبوعين أو فى كل شهر على الأكثر يزورنى فى بلدى سطيف أو أزوره فى قسنطينة فنزن أعمالنا بالقسط ونزن آثارها فى الشعب بالعدل ونبنى على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامج للمستقبل بميزان لا يختل أبدًا، وكنا نعمل للمفاجآت حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصًا لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين».

ولما أُسست جمعية العلماء الجزائريين نشط ابن باديس والبشير فى الدعوة والعمل نشاطًا عظيمًا، أما البشير فقد كان يلقى فى تلمسان عشرة دروس فى اليوم الواحد!! من بعد صلاة الصبح إلى العشاء، ثم ينصرف بعد العشاء إلى بعض المحافل ليلقى محاضرات فى التاريخ الإسلامى، وأما أيام العُطلة الدراسية فقد كانت له فيها جولات سياحية فى القرى، وهذا النشاط الضخم كان له ما يقاربه عند ابن باديس فى قسنطينة والطيب العُقْبى فى الجزائر العاصمة، وقد أثمر هذا كله عن بناء أربعمائة مدرسة إسلامية، وأكثر من مائتى مسجد للصلوات، وهذا لم يكن ليرضى الاستخراب



الفرنسى الذى كانت العربية من ألد أعدائه والإسلام من أشد خصومه، فاعتُقل الشيخ البشير ونفى إلى صحراء وهران.

وكان سبب هذا الاعتقال أن فرنسا أرادت من الإبراهيمى فى أوائل الحرب العالمية الثانية أن يتحدث من الإذاعة بأحاديث يستميل فيها الشعب الجزائرى لفرنسا ليؤيد موقفها فى الحرب، فلما رفض الشيخ نفته السلطات الفرنسية إلى قرية آفلو فى جنوب وهران، سنة ١٩٤٠.

ثم ما لبث أن توفى الشيخ ابن باديس -رحمه الله- بعد أسبوع من نفى البشير، واجتمعت جمعية العلماء يوم وفاته وانتخبت الشيخ البشير رئيسًا للجمعية بالإجماع، وأُبلغ بهذا الاختيار وهو فى منفاه فى صحراء وهران فصار يعمل بما يستطيعه وهو على حالته تلك، ويدير الجمعية بالمراسلة، وكان فى انتخابه تحدٍ لفرنسا كبير.

حتى إذا عاد من منفاه أواخر سنة ١٩٤٢ مكث قليلاً فى تلمسان ثم ارتحل إلى الجزائر واستقر بها، وأقبل على الوعظ والإرشاد وإنشاء المدارس، ورأس تحرير جريدة البصائر، وقام على شئون جمعية العلماء، وأنشأ أول معهد ثانوى كبير فى قسنطينة وسماه باسم ابن باديس تخليدًا لذكرى رفيقه ووفاء له، وكان فى سنته الأولى قد ضم حوالى ألف طالب!!

وفى سنة ١٩٤٥ عقب نهاية الحرب العالمية الثانية نزل كثير من الجزائيريين إلى الشوارع فرحين بنهاية الحرب حاملين العلم الوطنى ظنًّا منهم أن فرنسا ستخفف من قيودها عليهم، وكان ذلك فى ٨ مايو، فما كان من



فرنسا الغادرة إلا أن قتلت منهم آلافًا فى أحداث همجية، وكان جزاء الجزائريين كجزاء سنمار، وسيق الآلاف إلى السجون وكان منهم البشير الإبراهيمى، الذى مكث يعانى فى السجن الصعب عشرة أشهر حتى نجاه الله تعالى فى مارس سنة ١٩٤٦.

وفى سنة ١٩٤٨ شارك الإبراهيمى فى تأسيس «جمعية إعانة فلسطين» وكان فيها ثلة من العلماء والكبراء، وعملت الجمعية أعمالاً جليلة، وبعثت مائة من المجاهدين إلى فلسطين، وجمعت تسعة ملايين فرنك قديم.

وزار البشير باريس سنة ١٩٣٦ مع وفد المؤتمر الإسلامى لعرض مطالب الجزائريين على حكومة فرنسا، وزارها عدة مرات بعد ذلك منها سنة ١٩٥٢ حين عقدت منظمة الأمم المتحدة اجتماعها فى باريس، واجتمع بوفود الدول العربية والإسلامية، وأقام على شرفهم حفل عشاء شرح فيه المطالب الجزائرية فأعجبت الوفود بما قاله، وعرضوا عليه أن يستضيفوه فى بلادهم ليشرح قضية بلاده للشعوب، فلما عاد إلى الجزائر وعرض الأمر على الجمعية رأى أعضاؤها أن يكون الإبراهيمى هو اللسان الناطق بشئونهم ومطالبهم للشعوب العربية والإسلامية، فطاف الإبراهيمى بكثير من الدول العربية والإسلامية، ثم استقر فى مصر فاندلعت ثورة سنة ١٣٧٤/ ١٩٥٤ الجزائرية وهو فى أرض الكنانة فجهد فى شرح القضية الجزائرية بكتابة المقالات فى الصحف، وعقد المؤتمرات، والحديث فى إذاعة صوت العرب وجمع التبرعات.



وإقامة البشير فى القاهرة فى سنوات الثورة الجزائرية كانت لها مزايا ذكرتها آنفًا لكن كان يَعْتَوِرها النقص من جهتين اثنتين: أولاهما أن البشير كان بعيدًا عن جمعية العلماء الجزائريين وعن العناية اللازمة لدفعها قُدُمًا وترسيخ وجودها فى الجزائر، ولإيجاد المرجعية لها بين صفوف النخب الجزائرية وعامة الشعب، وخاصة أن الجمعية لم تستطع الاستمرار أمام الهجمة الفرنسية عليها، فأغلقت سنة ١٩٥٦ أى بعد استقرار البشير فى القاهرة بقرابة ثلاث سنوات، أما الأمر الآخر من النقص الذى دخل على إقامة البشير فى القاهرة هو أنه كان رمزًا للعلماء الجزائريين، وكان وجوده إلى جانب زعماء الثورة أدعى إلى الحفاظ على إسلاميتها وإبعادها عن التيارات الماركسية والاشتراكية التى سقطت فيها الثورة فى أوجّها من بعض قادتها، والتى سقطت فيها البلد بعد نجاح الثورة على يد ابن بلا وبومدين من بعده، فغياب الإبراهيمى عن مجريات الثورة لمدة ثمانى سنوات أدى إلى قطيعة بين العلماء وأكثر رموز الثورة، وسمح للمذاهب الضالة بغزو الثورة من جوانب كثيرة، هذا هو رأيى الشخصى الذى أراه، وليس مثل الخسارة التى أودت بالثورة خسارة، وكان يمكن للجزائر لو ظلت وفية لمبادئ ابن باديس والإبراهيمى وأضرابهما، ولو بقيت الثورة على نصاعة التخطيط لها وجلال جذورها الإسلامية لتغير وجه الجزائر وربما تغير التاريخ فى البلاد العربية لكن هكذا قدر.

وقد كان البشير ذا مواهب متعددة، فمن ذلك أنه شاعر، ومن أعظم ما قرضه ملحمته الضخمة التى قال عنها:

«ولكن أعظم ما دونت ملحمة رَجَزية نظمـتها فى السنين التى كنت فيها مبعدًا فى الصحراء الوهرانية، وهى تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت!! من الرجز السلس اللزومى فى كل بيت منه، وقد تضـمنت من فنون المواضيع: تاريخ الإسلام، ووصفًا لكثير من الفرق التى حـدثت فى عصرنا هذا، وللمجتمع الجزائرى بجـميع فِرَقه ونِـحَله، ولأفانين من الهزل للمـذاهب الاجتماعـية والفكرية والسياسـية المستجدة، والإنحـاء على الابتداع فى الدين، وتصويرًا لأوليـاء الشيطان، ومـحاورات أدبيـة رائعة بينهم وبين الشـيطان، ووصـفًا للاستـعمـار ومكائده ودسائسـه وحِيَله وتحـذيراته للشعـوب للقضـاء على مقـوماتها» وهذا دال على مـبلغ علمه -رحمـه ﷺ تعالى- ولا أدرى أين ذهبت تلك الملحمة.

وللشيخ كتب عديدة منها قصة كـاهنة الأوراس، وحكمة مشروعية الزكاة فى الإسـلام، وشعـب الإيمان، ومـخـارج الحروف، وفـتـاوى، والاطراد والشذوذ فى العربيـة، وكتاب «عيون البصـائر» الذى يضم المقالات التى كان يفتتح بها مجلة البصائر التى يرأس تحريرها، لكن للأسف كل تلك الكتب لا يُدرى أين هى الآن، وما بقى منها هو مجموعة مقالاته فى أربعة أجزاء.

من أقواله الجليلة ما يصف به الاستخراب الفرنسى قائلاً:

«جاء الاستـعمار الفرنسى إلى هذا الوطن كمـا تجىء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسبـاب الموت، فوجد هذه المقومات راسخـة الأصول، فاهية الفروع على نسبة من زمنها، فتعهـد فى الظاهر باحترامها والمحافظة عليها، وقطع قـادته وأئمته العـهود على أنفسهم وعلى دولتـهم ليكونن الحـامين



للموجود المشهود من عقائد ومعابد وعوائد، ولكنهم عملوا فى الباطن على محوها بالتدريس. . . والاستعمار سُلٌّ يحارب أسباب المناعة فى الجسم الصحيح، وهو فى هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية. . . ».

وقال عن بعض الصوفية المنحرفين فى الجزائر:

«وما ضَرَّ هؤلاء الأشياخ وقد دانت لهم الأمة، وألقت إليهم يد الطاعة، ومكنتهم من أغراضها وأموالها أن يأخذوا أموالها سارقين، ثم يورثوها أولادًا لهم فاسقين، يبددونها فى الخمور والفجور، والسيارات والملابس والقصور؟

ما ضرهم أن تهزل الأمة إذا سمنوا؟

ما ضرهم إذا فسدت أخلاقها ما دام خُلُق البذل والطاعة صحيحًا؟

ما ضرهم أن تفترق كلمة الأمة ما دامت مجمعة على تعظيمهم واحترامهم، ومغضية عن شرورهم وإجرامهم؟».

وقال عن فرنسا واستخرابها:

«إن الاستعمار الفرنسى صليبى النزعة، فهو -منذ احتل الجزائر- عامل على محو الإسلام لأنه الدين السماوى الذى فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام. . . ».

وقال عن العيد:

«الحقيقة هي أنني كلما أظلني عيد من أعيادنا الدينية أو القومية أظلتني معه سحابة من الحزن لحال قومي وما هم عليه من التخاذل والانحلال، والبعد عن الصالحات والقرب من الموبقات... وكيف استخفهم علماؤهم وزعماؤهم وكبراؤهم وملوكهم فأطاعوهم، أفكر في قومي العرب فأجدهم يتخبطون في داجية لا صباح لها... وأفكر في علة هذا البلاء النازل بهم، وفي هذا التفرق المبيد لهم فأجدها آتية من كبرائهم وملوكهم من المعوقين منهم... وأفكر في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الدين قشورًا بلا لباب وألفاظًا بلا معانٍ، ثم عمدوا إلى روحه فأزهقوها بالتعطيل، وإلى زواجره فأرهقوها بالتأويل، وإلى هدايته الخاصة فموهوها بالتضليل، وإلى وحدته الجامعة فمزقوها بالمذاهب والطرق والنِّحَل والشِّيَع، وقد نسوا حاضرهم افتتانًا بماضيهم، ولم يحفلوا بمستقبلهم لأنه -زعموا- غيب، والغيب لله، وصدق الله وكذبوا، فما كانت أعمال محمد وأصحابه إلا للمستقبل».

مناصبه:

عُرضت عليه مشيخة الجامع الأزهر لما كان في القاهرة لكنه رفضها لما يعلم من عوائق الوظيفة لعلمه الذي نذر نفسه له.

وعين عضوًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة، ودمشق.

هذا مع ما كان عليه من رئاسة لجمعية العلماء الجزائريين التي عطلها المستخرب الفرنسي سنة ١٣٧٦/١٩٥٦ إبان الثورة.



وعرضت عليه فرنسا أن توليه منصب شيخ الإسلام فى الجزائر استمالة له فرفض بإباء وشمم.

من أقوال الكبراء فيه:

قال عنه تلميذه د. جميل صليبا:

«ولعلنا لم نحب هذه اللغة العربية إلا بتأثير حبنا للشيخ أولاً، فقد أحببناه حبًّا عميقًا وانتقل هذا الحب منه إلى مادته، ولا غَرْو فقد كان - رحمه الله- من أعظم الناس فى أعيننا، وكان الذى حببه إلى نفوسنا تواضعه ولطفه، ووقاره وشجاعته، وعفته، وشعوره بكرامته، وحرصه على القيام بواجباته...».

قال عنه بعض معاصريه:

«وإليه انتهت رئاسة العربية فى الجزائر».

وقال عنه العالم محمد بهجة البيطار:

«دائرة معارف جمعت من كل شىء بطرف».

وقال عنه رفيقه ابن باديس:

«عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ الإبراهيمى أن يضل فى دين، أو يَخْزَى فى دنيا، أو يذل لاستعمار».

من أعماله الدالة على نبوغه:

إضافة لما سبق كان هناك فى حياة الشيخ الإبراهيمى أحداث تدل على



نبوغه، منها أن جمعية العلماء الجزائريين لما أسست كُلف الإبراهيمى فى أول جلسة لها أن يضع لائحة لها فكتبها فى سبع وأربعين ومائة مادة نوقشت فى ثمانى جلسات خلال أربعة أيام، ثم صودق على اللائحة بالإجماع دون زيادة أو نقصان!! مما دعا الشيخ ابن باديس أن يقول له: وَرِى بك زناد هذه الجمعية.

وفاته:

عاد البشير الإبراهيمى إلى الجزائر سنة ١٣٨٢/١٩٦٢ عقب نجاح الثورة، وأَمّ الناس فى جامع كتشاوة الذى حوله الفرنسيون إلى كاتدرائية لما دخلوا سنة ١٨٣٠، فأعيد إلى الإسلام والمسلمين، وفرح الناس برجوعه، لكن رياح الجزائر كانت شرقية آنذاك وتمركست الجزائر -من الماركسية- فلم تكن لترحب بمثل البشير الإبراهيمى الذى لزم بيته فى إقامة جبرية إلى أن لقى وجه الله تعالى سنة ١٣٨٥/ ١٩٦٥ مقهوراً محصوراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



[٧]

المفسر العامل

أبو الثناء الآلوسي

[١٢١٧-١٢٧٠هـ] [١٨٠٢-١٨٥٤م]



لقد كانت الدول العربية والإسلامية منذ القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى إلى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى تغط فى سبات عميق، وما زالت كذلك حتى قام رجال عظماء حركوا الراكد من أمرها، وأيقظوا النائم من أهلها، وبعثوا فيها نهضة سياسية وعلمية وثقافية هائلة، وكان لهم -بعد الله تعالى- الفضل الأكبر فى التوطئة لهذه الصحوة المباركة التى تعيشها البلاد العربية والإسلامية منذ ثلث قرن تقريبًا، وكان من هؤلاء العظماء شهاب الدين أبو الثناء الآلوسى العراقى، وآلوس -وتقصر همزتها وتمد- قرية على أعالى الفرات، فى محافظة الأنبار، غرب العراق.

ولد رحمه الله تعالى سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م فى الكرخ -محلة ببغداد- من أسرة حسينية النسب، وأبوه صالح عالم يسمى بهاء الدين عبد الله، وقد توفى بالطاعون سنة ١٢٤٦هـ، وخلف ثلاثة أبناء منهم أبو الثناء محمود الذى نشأ على ما ينشأ عليه طلاب العلم فى زمانه، فقرأ القرآن، وحفظ الآجرومية فى النحو، وألفيه ابن مالك، وحفظ منظومة الرحبية فى علم الفرائض، وقرأ على أبيه الفقه، وأتم كل ذلك وهو دون العاشرة!!

ثم أخذ على جملة من علماء بلده ومنهم الشيخ علاء الدين الموصلى فقد لازمه أربعة عشر عامًا، حتى أجازه فى التدريس، ودرس بعد ذلك فى



أماكن عـديدة، وخطب ووعظ، وولى أوقـاف مدرسـة مرجان وهى رتـبة مـشروطة لأعـلم أهل البلد، ونصب مـفتـيًـا للحنفـيـة، وتلك المناصب والوظائف جلبت له حسد الحاسدين، ووشـاية الواشين، وقد نال (نيشان) السلطان لما أجاب على أسئلة صعبة وردت من إيران، وشرع يؤلف تفسيره الكبيـر «روح المعانى» وهو مطبوع اليوم ومـتداول، ثم أثمر الكيـد والحسد عن عزله عن منصب الإفتاء، ورفعت يده عن الأوقاف، وتغير حاله وافتقر فلم يجد بدًّا من الذهاب إلى إسـتانبول لعرض أمـره على السلطنة هنالك، وكان قد أتم التفسير فأخذه معه وسيلة إلى ما هنالك، فالتقى فى إستانبول شيخ الإسـلام عارف حكمت صاحب المكتـبة المشهـورة فى المدينة المنورة، فأعرض عنه شيخ الإسلام لما سبق من وشـاية الواشين وحسد الحاسدين ثم صلح مـا بينهـما، ثم عـرض أمـره على الصـدر الأعظم «رئيس الوزراء» مصطفى رشيد باشا فتوصل إلى أن ينعم عليـه السلطان عبد المجيد بخمسة وعشريـن ألف قرش إستانبـولى وله مثلها كل عام، وأعطاه شـيخ الإسلام خمسين ألف قرش، وعاد إلى وطنه بعـد أن غاب عنه قرابة سنتين، وكتب رحلته هذه فى كتاب «غرائب الاغتراب»، وفى كـتابين آخرين سجل فيهما رحلة الذهاب والإياب.

كتبه:

كان له كتب كثيرة جليلة منها:

«روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى»، وهو كتاب ضخم

كبيـر، سار فيه على طريقـة القدماء، لكن مزج تفـسيره بإشارات الصـوفية وببعض الأحـاديث الضعيفـة، وبعض الإسرائيليات، لكن تفسـيره هذا فى الجملة مقبول وقد أورد فيه كثيراً من النقولات، ورجح بعضها على بعض، وكان فى مدة اشتغاله بهذا التفسير عالى الهمة جداً، فقد ذكر طلابه أنه كان يسهر الليل يقـرأ ويكتب، فإذا أشرقت الشمس دفع إلى طلابه ما كـتبه فى الليل ليـبيضـوه فى النهار، وهكذا إلى أن فـرغ منه، ولا بد لأبى الثناء من هذه الهمة ليفرغ من تفسيـره الكبير الذى تفنى الأعمار قبل تمامه، هذا على مـا هو فيـه من الانشغـال بالمناصب والتدريس، لـذلك كله بقى فى تأليف الكتاب خمسة عشر عاماً.

وقد طبعه ابنه خير الدين نعمان فى مصر بمطبعة بولاق سنة ١٣٠١.

وله كتاب «الأجوبة العراقيـة عن الأسئلة الإيرانية» وفيه إجابة عن ثلاثين مسـألة وردت من إيران فى التفسـير واللغة والفـقه والعقـائد والمنطق وعلم الفلك وغير ذلك.

وله كتاب «الأجوبة العراقية من الأسئلة اللأهورية» ذب فيه عن أصحاب النبى ﷺ ورضى عنهم، وكـافأه السلطان عليـه بمكافأة عظيـمة، وطبع فى بغداد سنة ١٣٠١.

وله كـتاب «غـرائب الاغـتـراب ونزهة الألباب فى الـذهاب والإقامـة والإياب» وقد ذكر في الكتـاب ما جرى عليه لما ذهب إلى إستـانبول، وقد



طبع فى بغداد سنة ١٣١٧، وله كتابان آخران ألفهما عن رحلته وهما مطبوعان.

وله كتاب «سفرة الزاد لسفرة الجهاد» دعا فيه المسلمين إلى اليقظة فى كل الجوانب وأعلن أن الجهاد فريضة لا بد منها أمام هجمات أعداء الإسلام التى تتابعت على العالم الإسلامى آنذاك.

وله كتب كثيرة غير هذه ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود، وجملتها اثنان وعشرون كتابًا.

ريادته:

كان أبو الثناء الآلوسى رائدًا فى بلاده العراق وأحد أعمدته، فقد كان مفسرًا لا مثيل له فى عصره، ومؤرخًا، وفقيهًا، وقد نصب مفتيًا للحنفية وهو فى الثلاثين من عمره، وهذا دليل نبوغ وريادة، وبقى فى منصب الإفتاء خمسة عشر عامًا ثم عزل، على أنه لم يكن حنفيًّا فأسرته شافعية لكن منصب المفتى إنما هو للأحناف فقط على ما جرت عليه العادة فى الدولة العثمانية، فأقبل أبو الثناء على دراسة المذهب الحنفى حتى أتقنه وبرع فيه.

وكان أبو الثناء على مذهب السلف فى العقيدة، وكان كثيرًا ما يردد: «يا بنى: عليكم فى باب العقائد بعقيدة السلف فإنها أسلم، بل من أنصف يعلم أنها أيضًا أعلم وأحكم، لأنها أبعد عن القول على الله بما لا يعلم».



وقد كان أبو الثناء مناصراً لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مثنيًا عليها.

وقد ذكر فى تفسيره آراء لشيخ الإسلام ابن تيمية، وقد كان هذا فى ذلك الوقت أمرًا عظيمًا محتاجًا إلى شجاعة وقوة.

ولم يكن أبو الثناء منقطعًا عن الناس بل كان واسطة عقدهم، وإليه - بعد الله تعالى- مفزعهم، وهو مهوى أفئدتهم، فلذلك أقبلوا عليه إقبالاً عظيمًا، وتعلقوا به، وصار له تلامذة كبار، وصح فيه قول المؤرخ العراقى عباس العزاوى: إن العصر الحديث فى العراق يجب أن يسمى عصر الآلوسى.

ها وقد قال الأستاذ العزاوى -أيضًا- فى الآلوسى قولاً يلخص ما كان عليه من صلة بالناس:

«إن علماءنا ساروا على الجادة العلمية من تدريس كتب بعينها وما فيها من تعقيد وسقامة، ولم يخرجوا عنها فدام جمودهم، كما أنهم قبعوا فى مدراسهم وتركوا تهذيب الأمة وأهملوا العلاقة بها، فدخلت عقائد زائفة وانتشرت فى الخفاء، ثم ظهرت الدعوة لها وأدت إلى خطر، وشغل المدرسين الشاغل التدريس دون التفات إلى تهذيب الشعب، ومن هنا نجمت الأخطار، والأستاذ بوعظه أعاد الاتصال بالشعب فأحبه».



وكان لأبى الثناء رأى فى ولاة عصـره وطرائق إدارتهم، وقد ذمهم فى مواضع عديدة لأسباب مختلفة، وطعن فى طريقة اختيار مجلس الشورى ورأى من الولاة بسـبب ذلك وغيره مـا ساءه من عـزل له عن المناصب، وسُجن مـرارًا، وخُوِّف وكـاد يقتل لكن الله تعـالى نجاه، واتهـمه بعض الولاة بإثارة الفتن والقلاقـل، وتحريض الشعب على المظاهرات، واتهـمه ولاة آخرون بالخـروج على الدولة العثمـانية، وهكذا انتقل من تهـمة إلى أخـرى، ووجـهت إليـه السهـام من كل جـانب، فـاضطر للسـفـر إلى إستانبول، لكنه لم يعد منها بما هو مأمول، فلبث فى بيته بضع سنين إلى أن وافاه الأجل المحتوم.

صفاته:

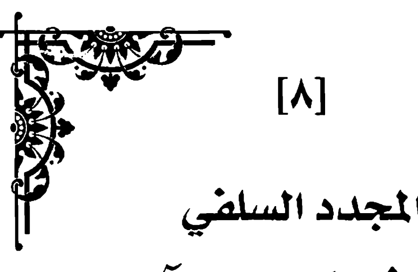
كان أبو الثناء صاحب همة عالية أنبأت عنهـا كثرة تصانيفه على أن عمره قصير نسبيًّا، وكان له صبر عجيب على شدائد الحياة، فحين نزع من الإفتاء والأوقاف اشتد عليه الفقر حتى قال عن نفسه: إنى بعت ثياب الشتاء لشراء قرطاس، وطالعت على نور القمر حيث أعوزنى نبراس -أى مصباح- وكم قاسيت من شـدائد تذيب الجلاميد -أى الصـخور الصلاب- وعضـه الفقر حتى باع كـتبه وأثاثه وحاجـاته لينفق على أهله حتى لم يبقَ فى بيـته شىء يبـاع، وبقى على ذلك ثلاث سنوات حـتى كاد يأكل الحـصير على مـداد التفسير، كما قال.



ومن همته ارتحـاله إلى أماكن عديدة -على صعـوبة فى الانتقال آنذاك- فقد ارتحل إلى الحجاز والشام وإستانبول ومصر.

توفى رحمـه الله تعالى سنة ١٢٧٠ ولم يجز الخمـسين إلا بقليل، لكنه ترك ثروتين مـهمـتـين، ثروة الكتب وعلى رأسـها التـفـسيـر، وثروة من التلاميذ، فالنهـضة العراقية الحديثة مدينة له، وتلامـيذه -تقريبًا- هم الذين تولوا من بعده قـيادة المجتمع العـراقى علميًّا وأدبيًّـا وتاريخيًّا، فرحـمه الله رحمة واسعة.





[٨]

المجدد السلفي

محمود شكري الآلوسي

[١٢٧٣-١٣٤٢هـ] [١٨٥٦-١٩٢٤م]



الآلوسيون أسرة عظيمة القدر، جليلة الفضل، وعمدتها رجلان: شهاب الدين أبو الثناء الآلوسى المتوفى سنة ١٢٧٠، وقد مرت ترجمته، وحفيده أبو المعالى محمود شكرى الآلوسى وهو الذى أترجم له فى هذه الصحات، واسمه مركب هكذا: محمود شكرى، وقد سماه أبوه باسم جده أبى الثناء الآلوسى المشهور رجاءَ أن يكون الحفيد مثل الجد، وأسرته حسينية النسب، كثيرة العلماء، وبلدته آلوس بلدة صغيرة على أعالى الفرات فى محافظة الأنبار غرب العراق.

ولد فى بغداد، ونشأ كما ينشأ غيره من طلاب العلم فى ذلك الزمان لكنه فاق الأقران بقوة حفظه وجودة فهمه وحسن خلقه، فقد حفظ القرآن وهو ابن ثمانى سنين، وحفظ كتبًا ومنظومات، وقرأ على مشايخ كثيرين، منهم والده بهاء الدين عبد الله، فلما مات والده كفله عمه خير الدين نعمان الآلوسى فكان له مكان أبيه، ثم اشتد عوده، وعظمت علومه أخذ فى التدريس فى عدة أماكن، ثم صار رئيس المدرسين فى مدرسة مرجان وذلك قبل موته بثلاث سنين سنة ١٣٤٠، وكانت أشهر مدرسة فى بغداد، والتدريس فيها يوكل لأعلم أهل البلد.

وقد كانت المدارس الحديثة فى بغداد تُدرس بالتركية فى الغالب سواء كانت مدارس مدنيّة أو عسكرية، وكان الناس يقلبون عليها لأنها على قسمين: قسم يطغى عليه الجمود والتقليد، وقسم آخر نشط فى الدعوة إلى الاجتهاد والخلوص من البدع، والعناية باللغة والأدب، وإلى هذا القسم



الأخير انتسب الآلوسى -رحمه الله تعالى- فى طوره الآخر، فقد نشأ فى الطور الأول على ما كان عليه الناس فى زمانه من التعلق بالتصوف الغالى، وما يتبع ذلك من تعلق بالضرائح والمشاهد، ومن خالف ذلك أو أنكره يُدعى بالوهابى ويؤذى.

وقد نشأ الآلوسى على حب التصوف والتقليد تبعًا لوالده وأكثر مشايخ عصره، لكن عمه العلامة نعمان كفله، وكان سلفيًا، فغرس فى نفسه حب البحث وكراهية البدع، لكن الفتى محمودًا كان متمسكًا بما كان عليه أبوه، فبحث عن مشايخ آخرين غير عمه.

فلما بلغ الثلاثين من عمره اطلع على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم فى خزانة كتب عمه وأستاذه خير الدين نعمان، فتأثر بما قرأ، ورأى أن يترك التقليد وطريقة الصوفية، لكنه لم يجهر بذلك خوفًا من الأذى الذى كان سيلحقه.

لكنه بعد اشتداد عوده، واجتماع أنصاره عليه، جهر بما كان يراه حقًا وبدأ يدعو إلى ما اقتنع به، فبعد قرابة ثلاث سنوات من المداراة جهر بما يراه حقًا فى كتابه «فتح المنان» الذى فرغ منه أواخر سنة ١٣٠٦ وطبع بالهند سنة ١٣٠٩.

لكن العلماء عادوه ونبزوه بلقب (الوهّابى)، وحرضوا عليه الوالى عبد الوهاب باشا والى بغداد فكتب إلى السلطان عبد الحميد يشكوه، ويدعى أنه خارج على السلطان وأنه وهابى إلى آخر تلك الشكاوى المعروفة التى كانت ترفع ضد رجال الإصلاح، فأمر السلطان بنفيه هو وابن عمه ثابت بن خير



الدين نعمان الآلوسى والتاجر حمد العسافى النجدى، فلما مروا بالموصل مخفورين ضج وجهاء الموصل ورفضوا أن يبارح الركب مدينتهم، وأرسلوا إلى السلطان عبد الحميد ما يقنعه ببراءة الثلاثة، فوافق أن يعيدهم إلى بغداد بعد أن مكثوا شهرين فى الموصل، وكان ذلك سنة ١٣٢٣هـ/ ١٨٩٥م.

ثم أقبل الإنجليز إلى العراق محتلين، ودخلوا البصرة، حينذاك أرسلت الدولة العثمانية وفدًا إلى الملك عبد العزيز يستنجده، وكان فيه أبو المعالى محمود -المترجم له ها هنا- وثلاثة آخرون، فخفوا سراعًا إلى نجد سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥، لكن الملك -الذى أحسن مقابلته ووفادته- اعتذر عن عدم استطاعته النصرة، وأنه يرى أن العثمانيين ضعاف والإنجليز أقوياء، وأنه إن أعلن الحرب على الإنجليز فلن يستفيد العثمانيون، وفى الوقت نفسه سيتضرر هو، فاقتنع الآلوسى بوجهة نظر الملك.

واجتمع الآلوسىّ بعلماء نجد واطلع على بعض خزائن الكتب، ثم خرج من نجد إلى الشام ثم بغداد.

كانت الأحوال السياسية فى عهده مضطربة غاية الاضطراب، والدولة العثمانية قد ضعفت إلى الحد الذى صار سقوطها متوقعًا بين الفَيْنَة والأخرى. وفعلاً قد سقطت فى سنة موت الآلوسى رحمه الله تعالى، هذا وقد عاصر سبعة سلاطين، وتولى على العراق ثلاثون واليًا فى الستين سنة التى عاشها الآلوسى تحت حكم الدولة العثمانية!! فقد كان العثمانيون يكثرون من تغيير الولاة حتى لا يطمعوا فى الاستقلال بما تحت أيديهم، وقد قال جمال الدين الآلوسى عن هؤلاء الولاة واصفًا حالهم:



«فالولاة الذين كانوا يُرسلون إلى العراق يغلب على أكثرهم الجهل، ولا غاية لهم إلا التسلط وجباية الأموال وإرضاء الرؤساء والأعيان، وأكثرهم لا يقرءون ولا يكتبون، فكانوا بحكم تخلفهم الثقافى أن يتخلف العراق ثقافياً وفكريًّا وأدبيًّا، بل كان عصرهم نكبة على العلم وأهله».

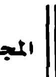
سقطت بغداد سنة ١٩١٧/١٣٣٥ بيد الإنجليز الذين عرضوا عليه بواسطة المعتمد البريطانى السير بيرسى كوكس قضاء بغداد فأبى بعد الإلحاح، ثم عرض عليه الإفتاء فرفضه أيضًا، لكنه قبل عضوية مجلس المعارف وعضوية المجمع العلمى العربى بدمشق لما فيها من خدمة العلم.

وكان يتحسر على زوال الدولة العثمانية وتفرق شمل المسلمين، وكان يكره الإنجليز.

ولما قبل أخوه الأكبر منصب وزارة العدل فى عهد الانتداب قاطعه، حتى إنه مات وهو مقاطع له غضبًا عليه.

همته:

كان أبو المعالى صاحب همة عالية تظهر فى جوانب حياته كلها، ففى صغره انقطع إلى الحفظ والقراءة على المشايخ، ثم كان صاحب همة فى التدريس فقد كان يدرس عامة نهاره فى مدرستين، ويحضر الدرس ولو فى يوم مطير، وقد ذكر أحد طلابه أنه انقطع عن الدرس فى يوم شديد الريح، غزير المطر، كثير الوحل ظنًّا منه أن الشيخ لن يأتى، فلما حضر فى اليوم التالى أنشده الشيخ شطر بيت: ولا خير فيمن عاقه الحر والبرد!!



وتظهر همته فى القراءة، فقد قرأ لسان العرب -وهو عشرون مجلدًا- قرأه ثلاث مرات، وحدّث عن نفسه أنه كان ببغداد ثمانى خزائن كتب فى مساجدها حافلة بنوادر المخطوطات، فقرأ كثيرًا منها، ونسخ الكثير، ثم تجاوز ذلك إلى خزائن كتب دمشق والقاهرة والمدينة النبوية المنورة ونجد وإستانبول، فانظروا إلى هذه الهمة فى القراءة، واليوم نرجو من الشباب الأقوياء أن يقرءوا كتيبات معدودات وهم عن ذلك نافرون!!

وكان له راتب ضئيل فكان ينفق منه كثيرًا من أجل أن يُكتب له من الخزائن على أيدى الناسخين.

وهو صاحب همة فى الكتابة أيضًا، فقد ردَّ على الشيخ يوسف النهانى فى سبعين كراسًا فى شهر واحد وهو شهر رمضان.

ومن الدلائل على همته أنه كان يقضى النهار كله -إلا قليلاً- فى التدريس، وكان يدرس بطريقة حاصلها الوصول إلى لب العلوم وثمرتها، ويخالف علماء بلاده فى طرائق تدريسهم التقليدية التى تعتمد على الحفظ والترديد للأقوال.

ريادته ومؤلفاته:

كان للأستاذ قصب السبق فى العراق فى العصر الحديث بالمناداة بتطهير المجتمع من البدع، وكف العامة عن العكوف على المقبور، والدعاء إلى التوحيد الخالص، والرد على دعاة البدع والشطح وقد ناصر شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ونشر كتبهما ودافع عنهما طويلاً، وقد ألف فى نصرة



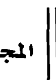
العقيدة السلفية ومحاربة المبتدعة عدة كتب، منها: «غاية الأمانى فى الرد على النبهانى» وهو كتاب كبير من مجلدين أثنى عليه الأستاذ رشيد رضا ثناء بالغًا، وألف فى هذا الباب أيضًا «فصل الخطاب» فى شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب، وله غير ذلك، وقد قال تلميذه الأستاذ محمد بهجة الأثرى فى ذلك:

«جاهد السيد البدع والوثنيات، ودعا إلى التوحيد الذى هو أول ما كانت تدعو إليه الرسل، وبين ضرر تقليد الآباء والسير على آثارهم الغامضة، غير مدخر فى جهاده ودعوته وسعًا، حتى كبح جماح الوثنيين، وخفف من غُلَواء -أى شدة- القبوريين أو كاد، فكان له من التأثير المحمود فى قمع الضلال ما لا سبيل لأحد إلى إنكاره، وهذه آثار جهاده بين الأيدى».

أما الشيعة فقد ألف فى نقض عقائدهم عدة كتب منها: «صب العذاب على من سب الأصحاب»، «والسيوف المشرقة مختصر الصواق المحرقة»، و«المنحة الإلهية تخليص ترجمة التحفة الاثنى عشرية»، وقد أهدى كتابه الأخير هذا إلى السلطان عبد الحميد رحمهما الله تعالى.

وله فى اللغة العربية والآداب كتب كثيرة.

وكان له قوة وجلد على لتأليف حتى إنه ألف كتابه «غاية الأمانى فى الرد على النبهانى» فى أربعين يومًا فقط، وهو كتاب ضخم، وقد قال فى ذلك الأستاذ محمد بهجة الأثرى:



«وقد أجال قلمه فى نواحٍ شتى من المعرفة، وألف فى علوم وفنون مختلفة. . . وقد أدرك أهل عصره قوته العجيبة فيه» أى فى التأليف.

وقد بلغت عدة كتبه قرابة ستين كتابًا ورسالة، منها ما يبلغ مجلدين وثلاثة.

وقد آلت مكتبته إلى مكتبة المتحف العراقى: مؤسسة الآثار العامة ببغداد، ضمن مخطوطات الخزانة الآلوسية التى اقتنتها مؤسسة الآثار من أسرة السيد عبد الرزاق محمد ثابت الآلوسى.

قصة كتابه «بلوغ الأَرَب»:

أما مؤلفاته التاريخية فأشهرها «بلوغ الأرب فى أحوال العرب» فى ثلاثة مجلدات، ولهذا الكتاب قصة لطيفة، فقد أرادت لجنة اللغات الشرقية -المنعقدة فى أستوكهولم بدعوة من أوسكار الثانى ملك السويد والنرويج- تأليف كتاب يستوفى أحوال العرب فى جاهليتهم وإسلامهم، وذكر قبائلهم وعوايدهم ومشاهير رجالهم، ثم كيف استطاعوا فتح الممالك، ونشر الإسلام، مع التعريج على عرب اليوم فى بواديهم، على أن يكون الكتاب قائمًا على أصول البحث العلمى مستوفيًا لها، وطلبت من العلماء العارفين بأحوال العرب أن يؤلفوا هذا الكتاب، ثم تعقد مسابقة لاختيار أفضل الكتب وأحسنها، فسارع الآلوسى فيمن سارع لقبول الطلب وكتابة البحث، فلما انتهت المدة، وجُمعت البحوث من مصر والشام والعراق وأوربا ونظرت فيها اللجنة اختارت كتاب «بلوغ



الأرب فى أحوال العرب» للآلوسى، لما رأته أجمع المؤلفات التى وردت إليها مادة، وأغزرها فائدة، وأقربها مراعاة لشروطها، ففاز الكتاب بالجائزة والوسام الذهبى، وبعث إليه الكونت كرلودى لندبرج قنصل السويد والنرويج فى مصر برسالتين أثنى عليه فيهما ووعده بطبع كتابه تخليدًا له، وكان ذلك سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٢م.

وله كتاب «المسك الأذفر فى تراجم علماء القرن الثالث عشر» وهو مطبوع متداول.

وله كتاب تاريخ نجد، وتاريخ بغداد وغير ذلك من الكتب والمؤلفات التى زادت على الخمسين.

وللأستاذ الآلوسى مقالات نشرت فى مجلات عصره كالمقتبس والمنار، ومجلة المجمع العلمى العربى، وغيرها، وفتاوى كثيرة، لكنها لم تجمع إلى الآن فيما أعلم.

أخلاقه:

كان -رحمه الله تعالى- مستجمعًا للفضائل، صريحًا لا يعرف المحاباة، يقول للمصيب أصبت وللمخطئ أخطأت، وللصادق صدقت وللكاذب كذبت، وكان كثير الحياء، يميل إلى الفقراء، متواضعًا، بعيدًا عن التأنُّق فى الملبس والمطعم، شديد الانفعال والتأثر، سريع الغضب سريع الرضى، جريئًا، نشيطًا، ميالاً إلى الجد، جَلدًا على البحث والمطالعة والتنقيب والنسخ، صاحب همة عالية، لم يتزوج، فكان خفيفًا، قليل التعلق بالدنيا، وقد استجمع بهذا جملة من الفضائل المساعدة على الإمامة والريادة.



وكان يستحم بالماء البارد صبيحة كل يوم حتى فى شدة البرد!! وهذا دال على قوة عزيمته وشدة تحمله -رحمه الله تعالى- فبغداد فى الشتاء باردة.

مناصبه:

كان فى الشيخ حب للعزلة وميل للانفراد عن الناس، لذلك لم يُجِبْ أكثر المطالب لتوليه المناصب، إلا أنه فى الحرب العالمية الأولى طلب منه الوالى جمال باشا أن يكون عضواً فى مجلس الإدارة فى بغداد وشرح له حاجة الدولة العثمانية إلى المعاضدة والمناصرة، فأجاب إلى هذا وسار بالناس سيرة حسنة.

وكان قائمًا على القسم العربى من جريدة الزوراء التركية، وهى أول جريدة أنشئت فى بغداد، أنشأها مدحت باشا سنة ١٢٨٦هـ، وبقيت إلى دخول الإنجليز سنة ١٩١٧/١٣٣٥، فكتب فيها مقالات علمية وأدبية، وعرض بعض الأسئلة على علماء بغداد.

وبقى إمامًا وخطيبًا فى جامع الأعظمية مدة أربعين سنة، وكانت له مجالس فى مساجد بغداد للوعظ والإرشاد.

وكان صاحب خط جميل، وهو معدود من أئمة الخطاطين العرب فى العراق، وله تلاميذ تخرجوا على يديه فى الخط، وقد أخذ إجازة فى الخط من والده، وله آثار بخطه كثيرة لا زالت فى المكتبة القادرية لم تنشر بعد.

تلاميذه:

كان لمنهجه وطريقة تدريسه أثر كبير فى عدد من طلابه، ونبغ منهم



جماعة، منهم العلامة محمد بهجة الأثرى، والشاعر معروف الرصافى -إلا أنه انحرف بعد ذلك- وعبد العزيز عبد الرشيد من أهل الكويت، وعباس العزاوى مؤرخ العراق، ومحمد بن مانع النجدى، والأب إنستاس الكرملى النصرانى العراقى، العضو فى المجمع العلمى الدمشقى، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومجمع الشرقيات الألمانى.

وقد أخذ عنه بعض المستشرقين مثل مرجليوث، وهو خبيث ذو خبيئة سيئة.

وفاته:

توفى -رحمه الله تعالى- سنة ١٣٤٢/ ١٩٢٣ بعد أن عانى طويلاً من مرض انسداد المثانة، ودفن فى بغداد فى مقبرة الجنيد البغدادى، وصلى عليه عشرات الآلاف من الناس، وصلى عليه أهل نجد صلاة الغائب بأمر الملك عبد العزيز، ورثته الملوك والأمراء والعلماء من شتى أقطار العالم الإسلامى.

من أقوال العلماء فيه:

قال فيه العلامة رشيد رضا:

«ناصر السنة، وقامع البدعة، علامة المنقول، ودَرّاكة المعقول، دائرة المعارف الإسلامية، نبراس الأمة العربية... ولم نسمع للعلوم العربية والدينية على مذهب أهل السنة صوتًا إلا من هذا الرجل؛ لهذا لقبناه فى مكتوباتنا له بعالم العراق».



وقال فيه الأستاذ الكبير أحمد تيمور باشا:

قضى الله -ولا راد لقضائه- أن يفجع العلم بإمامه ونبراسه، وأن يحرم المستفيدون من سندهم فى حل معضلاته، ويعلم الله ما كان لهذه المصيبة من الوقع فى نفسى، ولكن ما الحيلة وقد نفذ القضاء وطوى الكتاب، وإنا لله وإنا إليه راجعون».

وقال فيه تلميذه محمد بهجة الأثرى رحمهما الله تعالى:

«وصفوة القول أنه كان من أعاظم رجال النهضة العلمية فى العالمين الإسلامى والعربى، لا ينازع فى ذلك منازع، وآثاره أعدل شاهد على ما نقول:

تلك آثاره تدل عليه ... فانظروا بعده إلى الآثار».

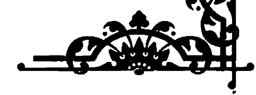


[٩]

الإمام المجاهد الصومالي

محمد بن عبد الله حسن

[١٢٧٣-١٣٣٩هـ] [١٨٥٦-١٩٢٠م]





إن الأخبار التاريخية التى وردتنا عن منطقة القرن الإفريقى عامة والصومال خاصة لهى أخبار قليلة لا تتناسب مع أهمية المنطقة وإشرافها على جزيرة العرب من جهة والدول الإفريقية المهمة من جهة أخرى، وربما كان لقلة المؤرخين فى تلك المنطقة أثر فى ذلك، ولعل مستقبل الأيام يخرج لنا بعض المخطوطات المهمة التى تتحدث عن تاريخ المنطقة باستفاضة.

والشخصية التى أتحدث عنها فى هذه الحلقة هى شخصية مجاهد جليل، وقف أمام أطماع الصليبيين فى الصومال التى هى -فى تقديرى- أهم بلاد القرن الإفريقى لموقعها الفريد ولاتساع مساحتها، وبرز منها مجاهدون عظماء منهم الإمام أحمد بن إبراهيم الذى وقف ضد أطماع البرتغاليين والأحباش بقيادة الملكة هيلانة، وكان ذلك فى الثلث الأول من القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، ولولا أن شرطى فى هذه السلسلة ألا أورد أحدًا من الشخصيات إلا إن كان من العصر الحديث لأوردته؛ فهو أحد العظماء المنسيين رحمه الله تعالى.

تنافس الأحباش والإيطاليون والبريطانيون والفرنسيون على تقسيم الصومال والتهامه تطبيقًا لقرارات مؤتمر برلين سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥ التى فتحت الباب واسعًا أمام الأطماع الصليبية فى كل إفريقيا، فكانت بريطانيا فى بربرة وما حولها، وإيطاليا فى مقديشو، وفرنسا فى جيبوتى، والحبشة فى هرر.



كان هذا الشيخ المجاهد محمد بن عبد الله حسن صوفيًا على الطريقة الصالحية، لكنه لم يكن مثل قعدة الصوفية ومثبطيهم بل إنه ضرب المثل فى الجمع بين الجهاد والتربية الروحية البعيدة عن الغلو، وكان هذا نادرًا فى العصر الحديث؛ كما هو معلوم، ولم يتحقق إلا لآحاد منهم عمر المختار والإمام شامل، ومهدى السودان وقليل غيرهم.

ولد الإمام المجاهد محمد بن عبد الله حسن فى سنة ١٢٧٣/ ١٨٦٤ فى شمال الصومال بالقرب من بوهوتلى، من أسرة عربية الأصل هاجرت إلى الصومال منذ زمن طويل، وكان أبوه من الأوجادين الجنوبية التى كانت تحت الإدارة الحبشية، من قبيلة بهجرى الصومالية، وأمه من قبيلة الدولبهنتا الصومالية أيضًا، فانتقل إلى تلك المنطقة واستقر بها، واهتم بابنه فأرسله إلى مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، والعلوم الشرعية فى الأوجادين، والتقى بالمشايخ وعلماء المنطقة، واشتغل بالصيد والفروسية والملاحة، ثم حصل على لقب الشيخ وهو فى التاسعة عشرة من عمره المبارك -وهذا دليل على نبوغه المبكر- ودرس فى المساجد والمراكز الدينية فى هرر ومقديشو ونيروبى وغيرها، ثم عاد إلى بلاده وهو فى الخامسة والعشرين فتزوج وواصل إلقاء الدروس، ووفد عليه جماعات من الطلبة الذين كانوا نواة لجنده فيما بعد.

وكان الإمام شاعرًا، وله شعر يتناقله الصوماليون اليوم لكنه لم يكتب فى حياته.

وحج البيت الحرام سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥ فوقف على أحوال المسلمين وأخبارهم فقد كانت مصر تموج بالاحتلال البريطانى، والسودان يثور بقيادة



المهدى، فكانت رحلة الحج إعدادًا نفسيًّا له لمواجهة الأطماع فى الصومال، والتقى فى الحجاز بالشيخ صالح السودانى صاحب الطريقة الصالحية وأخذ عنه، وكان أثناء إقامته بالحجاز يتسقط أخبار الصومال من الحجاج ويسمع ما صنع المحتل بأهل بلده.

ثم توجه إلى فلسطين وزار بيت المقدس.

وفى سنة ١٣١٣/ ١٨٩٥ قرر العودة لبلاده عن طريق عدن، وكانت بريطانيا قد أصبح لها اليد الطولى فى موانئ القرن الإفريقى مثل بربرة وزيلع، بعد انسحاب القوات المصرية التى كانت تحكم تلك البلاد، وذلك نتيجة مؤامرة حاكها المحتل البريطانى لمصر، وصارت بريطانيا تبنى الكنائس وتمزق الصومال إلى مناطق نفوذ مختلفة.

وفى عدن حدثت له حادثة تنبئ عن نفسية الرجل، فقد طلب منه أحد البريطانيين مشاهدة المظلة التى فى يده فأبى الإمام، فتبعه البريطانى وحاول أن يرى المظلة بالقوة فدفعه الإمام فسقط فى البحر، فتعجب البريطانيون من جرأته على أحدهم، وهم يعدون أنفسهم سادة المنطقة، وكاد يسجن لولا أن الله أنقذه بوساطة الشرطة فى عدن.

ثم توجه إلى بربرة التى لقى فيها عنتًا من رجال الجمارك الذى طلبوا منه رسومًا على أمتعته فقاله لهم: ومن الذى أعطاكم الإذن بالدخول إلى بلادنا؟



وأقام فى بربرة مسجدًا وأقبل على تعليم الناس وتربيتهم وتهذيبهم، وبدأ يحثهم على الجهاد ضد الأوربيين، وكان يؤثر فى سامعيه بما وهبه الله تعالى إياه من الفصاحة وقوة الحجة وحسن الإقناع بآيات من كتاب الله تعالى وأحاديث رسول الله ﷺ، وبشخصيته الفذة ورجاحة عقله وسرعة بديهته، هذا علاوة على ما امتاز به من براعة فى نظم الشعر والتأثير فى نفسية سامعيه، فجمع الناس حوله بهذه الشمائل والخلال وكون منهم نواة كبرت فيما بعد وعظم شأنها فى الجهاد.

وفى بعض المرات التقى بمجموعة من الأطفال الذين يتعلمون فى مدرسة البعثة الكاثوليكية الرومانية فى بربرة فعلم أنهم يعلمونهم مبادئ النصرانية المحرفة، ويغيرون أسماءهم حتى إنه سأل أحد الأطفال عن عشيرته فقال: إنه من عشيرة البابا!! وعن اسمه فقال: يوحنا عبد الله!! فاشتكى إلى المقيم السياسى البريطانى فى بربرة مطالبًا إبعاد المنصرين عن الصومال.

وحذر قومه من طاعة النصارى، وطالبهم بألا يعلموا أطفال المسلمين اللغات الأوربية -التى كانت مقرونة آنذاك بالتنصير- وحثهم على العناية بهم وتحفيظهم القرآن وتعليمهم الشريعة، وابتدأ يعد العدة للجهاد وتوحيد القبائل فى الصومال، حتى لاحت فرصة وهى أن أحد القساوسة كان يقطن بجوار أحد المساجد فى بربرة فأزعجه الأذان فأطلق النار على المؤذن!! فاشتعل الغضب فى نفوس المسلمين، فقاموا بهدم المركز التنصيرى فى ديمول ولاحقوا القس محاولين الفتك به، وحاولوا تحطيم كل المراكز



التنصيرية، فأرادت بـريطانيا التهدئة فقامت بترحـيل كل المنصرين فى باخرة إلى عـدن، وتعـهدت بعـدم السـماح لـهم بالعودة، ومـنع بناء كنائس فى الصومال، وألا تفتح محلات لبيع الخمور، وهذا باقٍ إلى اليوم فى الصومال الشمالى فليس فيـه مراكز تنصير ولا مدارس تنصـيرية بفضل الله تعالى ثم بهمة هذا الرجل وأصحابه، وهذا كله يعـلمنا أن المسلمين إذا كانوا أصحاب همة عالية وعمل بناء فإن أحدًا لا يستطيع الوقوف بوجههم.

وحدثت حادثة أخرى كانت هى الفتيل لإشعال الجهاد، وهى أن أحد رجال الشرطة فى بربرة هرب إلى الإمـام وأعطاه مسدسه، فسـمع القنصل البريطانى فى بربرة بهذا فطلب من الإمـام أن يرد المسدس، فرد عليه الإمـام ردًّا خشنًا، وبعد شهور تلقى القنصل البريطانى رسالة من الإمام يتهم فيها الإنجليز بالإساءة إلى الإسلام، وأنه يحتقر كل من يتعـاون معهم، ويطالبهم بدفع الجزية!! وهنا طلب القنصل من حكومتـه إعداد العدة لقـتال الدراويش، وهذه هى التسمـية التى سمى بها الاستخراب البريطانى جماعة الإمام، وسموه هو بالملا المجنون، وكان يلقب -أيضًا- بمهدى الصومال تشبيهًا له بمهدى السودان.

وخرج الإمام من بربرة إلى نوجـال واشترى عددًا من البنادق الفـرنسية، وصاحب هذا حضـور بعض الجنود الأحباش إلى أوجادين لجمع الضرائب من السكان فهجم عليهم أتباع الإمـام وعلى المعسكر الحبشى فى جكجكة، وغنموا أسـلابًا كثيرة وسـلاحًا إيطاليًّا، وهنا انتبـه إمبراطور الحبـشة منليك فتحالف مع البريطانيين لضرب الحركة الناشئة.



وهنا أدرك الإمام أن الوقت قد حان لإعـلان الجهاد فأعلنه، وحث على الاستعداد لقتال النصارى، والصبر علـى الشدائد، وبهذا صار قائدًا سياسيًّا وزعيـمًا دينيًّا معـًا فى منطقة الأوجادين، وابتـدأ بإخضاع القبـائل المجاورة لزعامتـه، وذلك لأن بعض رؤساء تلك القبائل لم تقبل أن تخـرج الزعامة عنه، لكن عددًا من رؤساء القبائل ذوى الحس الوطنى انضموا إليه.

وهذه رسـالة بعث بهـا الإمـام المجـاهد توضح وضع عـدد من قـبـائل الصومال وممالأتها للاحتلال، حيث قال رحمه الله:

«نحن قوم حاصرهم الكفار والمنافقـون من جميع الجهات وقطعت عنهم جميع المواصلات والإمدادات الحربية والغذائية، ونحن قوم ملئت صدورهم من الغضب والغيظ لأجل تخـاذل المسلمين وتخالفهم مع كـثرتهم، وتعاون المستعمرين وتوافقهم مع قلتهم فى بلادنا.

ونحن قوم باعـهم شعـبهم بثمن بخس لعـدوهم، وقد أنفـقت الحكومة الإنجليزية والحبشية والإيطالية والفرنسية فى سبيل ذلك مالاً كثيرًا، وانضمت إليهم بعض القبـائل الصومالية التى خضعت لرعوية تـلك الدول باختيارها وطوعها يقودها سلاطينها وزعمائها، ويحرضها علماؤها على حربنا!!

ونحن قـوم لا يخضـعـون لأعداء دينهم ووطنهـم ولو كثـرت جنودهم وتتابعـت هجماتهم، وتـنوعت آلاتهم المهلكات، واشتـدت وطأتهم علينا، وانضمت إلى صفوفهم أكثرية غير وطنية وأكثرية من المستخدمين الأجانب؛



لأننا نريد أن نشترى بأموالنا وأنفسنا الجنة من الله تعالى. . . ونحن قوم لا نسمح للكفار أن يحتلوا بلادنا أو يحكموها، ولا نتكالب على ذلك مع المستعمرين لا بعوض ولا بتهديد، ولا نترك قوانين الشريعة وأحكامها، ولا نجعلها خاضعة لقوانين الكفر. . . ونوجه لومنا إلى العلماء والقضاة الذين يهينون شريعتنا الإسلامية ويجعلونها تحت أقدام الكفرة الفجرة. . .».

ثم ذكر احتلال الدول الكافرة للصومال ثم قال:

«ثم إن الدول المذكورة بدأت تبذل أموالاً تافهة لزعماء القبائل ورؤساء العشائر لتشترى منهم دينهم ووطنهم وشرفهم وعزهم بتلك الدريهمات، وكأن الزعماء لا يفهمون مرارة الاسترقاق والاستعمار، ولا يدركون ما سيحصل لهم ولشعوبهم من الذل والخزى والهوان.

ولا يفهم هؤلاء الأغبياء أن المرتبات والمشاهرات -أى الرواتب الشهرية- مثلها كمثل ما يعطى للطير والحيتان لاصطيادها.

ومن جهة أخرى فتح المبشرون مدارس فى البلاد ليغيروا من دين الشعب. . .

ونشأ أيضًا فى المدن التى تحتلها تلك الدول الأربع عادة شرب المسكرات وتناول المخدرات، وفتحت العاهرات أبوابها دون خجل، فلما علمت ورأيت ذلك ثارت فى نفسى شدة الغيرة الإسلامية، واشتعلت فى قلبى الجذوة الوطنية، والتهبت روحى غضبًا وكادت تخرج من الهيكل



الجسماني، فبدأت أخطب في المساجد والمحافل وألقى بين الأمة خطبًا حماسية دينية.

ولا أزال أحذر الشعب وأناديه لكن لا حياة لمن أنادى ولا حكمة لمن أحذره، وقد قالوا لى لما نبهتهم على تقديم أوطانهم للمبشرين وعن تجنيد رجالهم للعدو: إنك تريد أن تقطع أرزاقنا وتهلكنا بالفقر والجوع!!

إلى آخر ما وصف به حال بعض القبائل فى الصومال آنذاك.

والعجيب أنه لما قام يدعو الشعب إلى الجهاد قال بعض من لا علم عنده:

الجهاد وقته متأخر، وسنجاهد فى أوان الجهاد عند خروج المهدى المنتظر فعندئذٍ تكون لنا العصى بنادق ومدافع وستكون آلات الكفار عصياً.

أما إذا جاهدنا الآن وليس معنا آلات حربية فلا يكون لنا إلا الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

وهذا من الفهم الأعوج وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذه رسالة قد بعث بها الإمام المجاهد إلى السلطان عثمان محمود سلطان ميجرتين، تبين وعيه وفهمه وحسن تصوره للجهاد إذ قال بعد البسملة والحمدلة والصلاة على النبى ﷺ:

«إنى أبعث لكم كتابين تباعًا تنفيذًا لقول الصادق المصدوق ﷺ: «**الدين النصيحة**» وبينت فيهما ما يفترضه الواجب الدينى لمعالجة المطامع المسلطة على بلادكم من دولة إيطاليا الكافرة، الظالمة القاسية، ووضحت لعظمتكم



أن الله تعهد بنصر المؤمنين، وتكفل بألا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً إذا قاموا بتأييد دينهم والسير على سنن قرآنهم فإنه قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وعلى هذه السنن نهج السنوسى مع إيطاليا فى طرابلس الغرب، فإنه هزمها وقهرها وغنم ما لا يحصى من الذخائر والعتاد الحربى، ولم يتركه هملاً بل صار يقاتلهم به بعد أن استعد لكل ما يلزم.

وعلى هذه القاعدة أيضًا سلك سلطان الريف فى المغرب الأقصى فإنه غضب لله وخرج منفردًا يقاتل فى سبيل الله، وما زال يسير فى وادى الإخلاص بحزم وحكمة وثبات، حتى صار يقود اليوم مائتى ألف مقاتل مزودين بالبنادق والمدافع الضخمة والرشاشات السريعة التى غنمها منهم، وصار يستعملها ضدهم حتى أرهب دولتى فرنسا وإسبانيا ودك قواتهما العظيمة وكاد يسحقهما سحقًا.

وكذلك مثل سلطان باشا الأطرش فى الديار الشامية مع دولة فرنسا.

وعلى هذه الخطة يسير الحاكم المسلم الحكيم، وكل من ولاه الله حاكمًا على طائفة من المسلمين واجب عليه أن يتزود ويستعد بما يرفع عن أمته الويل، وإذا لم يفعل فإنه يكون عاصيًا ومسئولاً يوم الفزع الأكبر أمام رب العزة...» ثم حثه على جمع الرجال للجهاد.



وهكذا دعا جمعًا من رؤساء القبائل والعلماء والشيوخ للجهاد ضد المحتل الغاصب، واعتمد فى جهاده على عوامل عدة منها:

تنظيم الجيش وتدريبه، جعل الصفوة الممتازة من أبناء القبائل طلائع لجيشه، الاعتماد على التجار العرب فى تهريب السلاح من ميناء بربرة وزيلع إلى معسكراته، الاستفادة من ذخائر الجيش المصرى التى كانت فى المخازن فى هرر وتهريبها إلى داخل الصومال، بناء مخازن فى الجبال للأسلحة لا يعرفها إلا القليل، بناء الحصون فى أماكن مهمة خاصة داخل الأوجادين، حفر عدد من الآبار على طول الجبهة الإيطالية والحدود البريطانية إلخ. . . فلما استعد هذا الاستعداد أعلن الجهاد فى سبيل الله ضد المحتلين من الإنجليز ومن يعاونهم من المسلمين.

أرسلت بريطانيا حملة بقيادة الكولونيل سواين، وجهز الأحباش جيشًا قوامه خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة جابرى، وكلفت الحكومة البريطانية همفرى تراس التابع لفرقة فرسان الحرس الملكى بالتنسيق بين قوات الطرفين، وكانت مهمة الأحباش قطع الإمدادات عن المجاهدين من شعب الأوجادين وغيره، وكُلفت إيطاليا -التى كانت قد استقرت فى بعض أجزاء القرن الإفريقى- بالضغط على سلطان ميجرتين المسلم!! لمنع وصول أى مساعدات للإمام ولمنعه من الهرب إلى الساحل، لكن الإمام عرف كل هذا وقام بتوزيع قواته ناحية الشرق، واستقر فى منطقة بوهوتلى على حدود المحمية البريطانية فى أوائل يناير سنة ١٩٠٠م/ ١٣١٧هـ وحارب



المجاهدون ثلاثة أشهر وأظهروا بطولات عظيمة، وأجبروا البريطانيين وغيرهم على التراجع، واكتفت بريطانيا بوضع قوات فى برعو، واحتل الإمام بعض المواقع.

أرسلت بريطانيا حملة ثانية بقيادة الكولونيل سواين الذى تحرك فى ١٧/ ٢/ ١٣٢٠هـ/ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٢ ومعه قوة احتياطية من الكتائب الملكية الإفريقية بقيادة الكابتن أسبورن مع ٥٠٠ فارس من الصوماليين بقيادة موسى فارح من منطقة هود، ويا للعار من انعدام الولاء والبراء عند هؤلاء، وتمركزت قوات المجاهدين فى إقليم بارن وكانوا حوالى ثلاثة آلاف مقاتل، وانتهت المعركة بمقتل مائة جندى بريطانى ولله الحمد والمنة وغنم المجاهدون غنائم جيدة.

استعانت بريطانيا بإيطاليا، وبالحبشة فوافق الإمبراطور منليك وأرسل خمسة آلاف مقاتل، تحت قيادة حبشية بريطانية مشتركة، وكان قائد البريطانيين مانتج وابتدأت الاشتباكات بين الطرفين ٢٥/ ١٢/ ١٣٢٠- ١٥ مارس ١٩٠٣، وهزم الله البريطانيين الذين قتل منهم ٢٩، ومن حلفائهم ١٨٧، وجُرح ٢٩، وقد استمرت المعركة من السادسة صباحًا حتى الرابعة مساء أُجبر بعدها البريطانيون وحلفاؤهم على الانسحاب، وقد قتل من جيش الإمام عدد كبير لا يُدرى كم هو، وأخفقت الحملة الثالثة.

وعلى أثر هذه الانتصارات ارتفعت معنويات المجاهدين وقويت عزائمهم وكثر عددهم، والتفوا حول قائدهم الإمام محمد بن عبد الله حسن،



فقررت الحكومة البريطانية إرسال حملة رابعة بقيادة الجنرال إيجرتون الذى أبحر من بومباى فى ٢٧ يونيو سنة ١٩٠٣/ ١٣٢١هـ، ووضع خطة محكمة للقضاء على الإمام أو أسره، وطالبت الحكومة البريطانية إمبراطور الحبشة المشاركة فى الحملة، ودفعت له خمسة عشر ألف جنيه إسترلينى ليتمكن من نقل قواته فى تلك المناطق الوعرة، وهُزم الإمام واستشهد من قواته ألف مجاهد، لكنه لم يُؤسر.

وبعد المعركة اقترحت الحكومة البريطانية على الإمام أن تتنازل له عن أجزاء من المحمية البريطانية والإيطالية، وأن تعترف به كرئيس إقليمى مستقل، وذلك مقابل بعض الامتيازات، وأن يودع مبلغًا من المال لذى الحكومة الإيطالية كضمان لحسن سيرته وسلوكه وتسليم أحد أبنائه رهينة ونزع سلاح أتباعه، فرفض الإمام، وحُقّ له أن يرفض فالخديعة ظاهرة فى هذا العرض الصليبى.

وكانت بريطانيا قد عقدت معاهدة قبل ذلك مع إيطاليا تعترف فيها بريطانيا بالصومال الإيطالى مقابل اعتراف إيطاليا بالصومال البريطانى وسيطرة بريطانيا على جوبا وكينيا.

وطلبت بريطانيا من فرنسا أن تغلق موانئ وطرق مستعمراتها «مستخرباتها» فى إفريقيا فى وجه الإمام حتى لا تأتيه الأسلحة منها.

طلب الإمام من سلطان ميجرتين تقديم المساعدة له لنقل قواته وماشيته عبر أرضه فكاد يوافق، لكن الإنجليز أنذروه بأنهم سيحتلون بلاده لو صنع،



فرفض طلب الإمام، الذى اتجه إلى الساحل بقواته فى منطقة أليج حيث يمكنه الحصول على السلاح من شبه الجزيرة العربية، لكن الإنجليز لم يتركوه فهاجموا قلعته التى سقطت تحت قوة نيرانهم، وتنسيقهم مع الإيطاليين، وتكبد الإنجليز قتل ثمانية ضباط وعشرين من الجند الوطنيين الخونة وسبعة عشر صوماليًّا غير نظامى، أما خسائر الإمام فقد بلغت ألفى شهيد!! وأسر منهم ٣٠٤، واستولى البريطانيون على ٤٧٣ مسدسًا وبندقيتين، وأعيرة نارية، ومائتين وثلاثة وعشرين حصانًا، و٣٦٤١٥ رأسًا من الماشية، وهى خسائر هائلة، لكن الإنجليز خسروا خمسة ملايين جنيه فى هذه الحملة وهو مبلغ هائل جداً آنذاك، وبعض المؤرخين يرى أن خسائر الإمام البشرية قد بولغ فى تقديرها فهى أقل من ذلك، والله أعلم.

بعد هذه المعركة جنح الإمام للموادعة حتى يسترد أنفاسه ويعوض خسائره، وقبل وساطة الإيطاليين لعقد صلح مع البريطانيين والأحباش فى اتفاق ستالوزا سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، ويبدو أن إيطاليا خافت على مستعمراتها أن ينتفض فيها الصوماليون فسارعت للوساطة بين الإمام وأعدائه، وكان من بنود الصلح ما يلى:

١- عدم تدخل الإمام فى شئون القبائل الصومالية التى تحت حكم بريطانيا.

٢- ألا يشترى جنوده السلاح، وألا يقوى الإمام الجيش.

٣- تحديد أماكن المجاهدين فى نطاق إقليم واحد معين بين رأس جاراد ورأس جابى، وهى من مناطق النفوذ الإيطالى، وفى نوجال، وبين سلطنتى هوبيا وميجرتين.

٤- رفع الحصار عن الإمام وتمكينه من شراء ما يحتاجه إلا السلاح، وألا يتجر بالرقيق.

٥- الحرية الدينية للإمام وأتباعه.

٦- أن يحكم الإمام أتباعه بنفسه.

٧- إبلاغ المجاهدين الحكومة الإيطالية بكل ما يمكن أن يعرض أمنهم للخطر.

٨- عقد معاهدة صلح بين الإمام وبين القوى الصليبية الثلاث: الحبشة وإيطاليا وإنجلترا.

- استفاد الإمام من مدة الصلح هذه التى استمرت إلى سنة ١٩٠٨/١٣٢٦، واستطاع أن يجذب إليه بعض القبائل والعشائر، وكانت بريطانيا تحاول أن توغر صدر القبائل على الإمام حتى يوقعوا بينه وبينها، واتصلت بالدولة العثمانية عن طريق قنصلها هنالك محاولة أن تقنعها بالاتصال بالمشايخ فى مكة، حتى يصدروا فتوى تنكر فيها زعامة الإمام على قبائل الصومال لكنهم أخفقوا.

وهنا لجأ الإنجليز والإيطاليون إلى حيلة ماكرة حيث استغلوا طرد الإمام للحاج عبد الله شجارى -أخلص أتباعه ورفيق الجهاد، وممثلة فى



المفاوضات -من حركته، فنظم القنصل الإيطالى رحلة لوفد فيه مشايخ كبار وأوكلوا رئاسته للحاج عبد الله شجارى، وذهب الوفد إلى مكة فى يوليو سنة ١٩٠٨/١٣٢٦هـ واشتكى إلى شيخ الطريقة الصالحية الصوفية التى يتبعها الإمام وأتباعه، وكذلك ذهب وفد من زعماء قبائل الصومال إلى مكة للغرض نفسه، وكانت حجة الوفدين أن الإمام قام بأعمال منافية لنهج الطريقة الصالحية!! واتهموه باتهامات لا تقبل عقلاً مثل شرب الخمر، والمجون، والعبث بالنساء، وحب سفك الدماء!! فأرسل شيخ الطريقة الصالحية فى الحجاز محمد صالح خطابًا إلى الإمام، وانتهز الإنجليز الفرصة فقاموا بطبع الخطاب وتوزيعه على نطاق واسع بين الصوماليين، فأثر ذلك فى اتباع الإمام وزُعزعت ثقتهم فيه، فما كان من الإمام إلا أن ألف رسالة بعنوان «قمع المعاندين»، وأرسل صورة منها إلى شيخ الطريقة الصالحية فى مكة وإلى السلطان العثمانى، لكن حدث انقسام بين قادة المجاهدين، واشتدت العداوة بينهم جراء ذلك كله، وعقد بعضهم اجتماعًا قرروا فيه عزل الإمام أو قتله وانتخاب خليفة له لمواصلة الجهاد أو إنهاء الجهاد وحَلّ الحركة، لكن الإمام قبض على قادة هؤلاء وأعدمهم.

وهنا قررت بريطانيا استغلال الفرصة وعقد صلح جديد مع الإمام عارضة عليه خمسين ألف جنيه إسترلينى شهريًا إذا حسن سيره وسلوكه، لكن الإمام اشترط تسليم عدوه الحاج عبد الله شجارى، ودفع بعض



التعويضات، والقبض على الصوماليين الذين أثاروا المشكلات الآنفة الذكر، ففشلت المفاوضات، وقررت بريطانيا إخلاء الداخل وتسليمه إلى القبائل وتسلحيها والاستقرار فى الساحل فقط فى المدن: بربرة وزيلع وبلهار، فلما حدث هذا انقضت قوات الإمام على أعوان البريطانيين من الصوماليين ففتكوا بهم، وعمت الفوضى وبدأت الحرب الأهلية، وتدمرت طرق القوافل، وانقطعت سبل التجارة.

وانتقل الإمام من مناطق الإيطاليين التى فُرضت عليه فى معاهد ١٣٢٣هـ ١٩٠٥ إلى مناطق النفوذ البريطانى التى ارتحل عنها البريطانيون، وبنى عددًا من الحصون والقلاع أهمها حصن تاليح الذى ظل مقرًا له إلى سنة ١٢٣٨هـ/ ١٩٢٠م، واحتل جنوده المعسكرات البريطانية فى الصومال، وبسبب ما جرى من الفوضى قررت بريطانيا إعادة النظر فى قرارها، وكونت قوة للشرطة تحفظ بها الأمن فى البلاد، وأرسلت إيطاليا قوة احتلت مقديشو حتى تحاصر الإمام من الجنوب، وأصدرت أوامرها لسلطان ميجيرتين الصومالى بمهاجمة الإمام!! لكن الإمام انتصر على القوة المشتركة، وكان ذلك فى ١٩/٨/١٣٢٩هـ ١٥ أغسطس سنة ١٩١١، وهذا كله يوضح أن الإمام ما زال فى يده مفاتيح القوة فى الصومال.

وبعد ذلك كتب الجنرال ريتشارد كورنفيلد القائد العام للقوات البريطانية المسلحة فى محمية الصومال لاند البريطانية «شمال الصومال» رسالة إلى الإمام المجاهد كلها تهديد ووعيد وفيها:



«لقد نصحناك وأنذرناك من سوء العاقبة ولم تقبل نصيحتنا، ولهذا فقد تكون عرضة لهجوم حكومة أكبر منك قوة، وسننسفك نسفًا أنت ومن معك إذا لم ترجع عن غيك وتخمد ثورتك الجنونية، واعلم أن دولة صاحبة الجلالة عظيمة جدًا ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئًا، فارجع عما أنت فيه، وعد إلى صوابك قبل أن تقع عليك المصيبة، وتندم على أعمالك السيئة، والموت ينتظرك متى أصررت على عنادك».

فأجابه الإمام إجابة تقطر عزة وشرفًا وجلالة:

«من السيد محمد عبد الله حسن قائد قوات الدراويش الإسلامية إلى الجنرال ريتشارد كورنفيلد قائد قوات الشيطان!!.

قد اطلعت على رسالتك، وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة وأغراض حكومتك الوضيعة، واعلم أن قواتك التى تفاخرون بها لا تساوى لدىَّ شيئًا، وأعلمك أيضًا أنكم إذا كنتم تحاربون بقواتكم الهائلة فإننى أقاتلكم بنيتى الوطنية، وإيمانى القوىّ، وعزيمتى المتينة التى لا تعرف الملل، مهما تكن الظروف فلن أستسلم ولن أكون للشرك عبدًا». الله أكبر.

وفى ٦/ ٩/ ١٣٣١/ ٩ أغسطس سنة ١٩١٣ حدثت معركة ضخمة بين الإمام والإنجليز بقيادة ريتشارد كورفيلد فى دلما دوبى، وكانت القوات البريطانية مدعمة بقوات من الهند وعدن والصومال وزنجبار وكينيا، وانتهت بهزيمة الإنجليز ومقتل كورفيلد، ونشرت الصحف البريطانية خبر



المعركة بعنوان: «كارثة مروعة لقواتنا فى الصومال» وأنشأ الإمام قصيدة بعنوان: مصرع ريتشارد كورفيلد، وأعلنت وزارة المستعمرات البريطانية الحداد على الجنود والضباط القتلى والأسرى وقائدهم الجنرال المقتول، وتراجعت القوات الإنجليزية مذعورة إلى الساحل، وحصل المجاهدون على غنائم كثيرة، وانتشرت الأخبار فى كل أنحاء الصومال، وانضم إلى المجاهدين عدد كبير ممن كان تحت حماية البريطانيين، وخاف الإيطاليون من المجاهدين الذين استولوا على برعو، وبربرة، وأرسلت بريطانيا قوة نجحت فى إيقاف المجاهدين لكن وقعت الحرب العالمية الأولى وانشغلت إنجلترا بها.

وفى المحرم سنة ١٣٣١هـ/ ديسمبر ١٩١٣ تولى على الحبشة الإمبراطور ليج ياسو الذى أسلم، وأرسل إلى الإمام مساعدات مالية وأسلحة، وأرسل له أحد الفنيين الألمان إلى حصن تاليح لإصلاح الأسلحة الأوربية.

واتصل الإمام بالأتراك فى عدن عام ١٣٣٥/١٩١٦ وطلب حمايتهم، وأعلن الخضوع للخلافة ولسلطنة السلطان محمد رشاد الخامس، لكن الدولة العثمانية كانت -آنذاك- أضعف من أن تنصره.

واجتمع بالألمان.

وفى ذلك الوقت أُبعد الإمبراطور ليج ياسو عن الحكم، وراسل الإنجليز الإمام طالبين الصلح فرفض بإباء عرضهم، وكان قد اجتمع بالقائد العام للقوات البريطانية ونائب الملكة فى الهند وأغروه بأن يكون ملكًا على



الصومال، فرفض كل تلك العروض مبينًا أنه لم يكن يومًا يريد الملك، وأن هدفه هو تطهير بلاده من الاحتلال ولا يبالى بعد ذلك عاش أم مات.

وواصل احتلال المواقع الحصينة منتهزًا فرصة انشغال الإنجليز بالحرب العالمية الأولى ضد الألمان والأتراك، ولكن بريطانيا لم يقر لها قرار، وعُقدت اجتماعات فى لندن وروما والحبشة لمحاصرة الجهاد الصومالى الذى وجد طريقه إلى قلوب الصوماليين وخشيت بريطانيا من تأثر مستخرباتها الأخرى.

وفى نهايات الحرب العالمية الأولى وبعد أن مالت النتائج لصالح الإنجليز وحلفائهم أرسل الإنجليز حملة حربية من الهند للحفاظ على موانئ الصومال واسترداد ما فقدوه من مدن، ووقعت معركة انهزم فيها جند الإمام وتراجعوا إلى الداخل.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى قرر البريطانيون إنهاء المعركة مع الإمام، وأرسلوا الجنرال هوسكنز إلى بربرة لتقدير الموقف العسكرى، ومن ثَمّ قرر البريطانيون إرسال حملة من الجو -لأول مرة- والبر والبحر، ونسقوا مع الإيطاليين وزعماء القبائل الصومالية الموالية لها، وفى ٢٩/ ٤/ ١٣٣٨هـ/ ٢١ يناير ١٩٢٠ ابتدأت القوات الجوية بضرب مواقع الإمام فى ميديشنى واستمر القصف ثلاثة أيام جواً وبراً، ومات عدد كبير من المجاهدين، وانسحب الإمام إلى حصن تاليح، فأرسلت بريطانيا ثلاث طائرات حلقت على ارتفاع منخفض وأحرقت كل مواقع المجاهدين، وأسرت بعض زوجات وبنات الإمام وبعض قادته، واستطاع الإمام الفرار إلى منطقة باخيرى، ومن ثَمّ



استقر فى منطقة هى، وانضم إليه من بقى من رجاله المخلصين حتى بلغوا ألفًا ومعهم بعض الأسلحة، وهنا أرسل إليه الحاكم آرثر طالبًا منه الاستسلام فرفض، ثم جرت جولات بينهما لم تسفر عن شيء.

ولما اشتد الحصار على الإمام انتقل إلى الأوجادين فى الحبشة نازحًا من الصومال البريطانى طالبًا الحماية لكن الأحباش قبضوا على رجاله، ومات الإمام فى ١١/٣/١٣٢٩هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٩٢٠ متأثرًا بمرض حَلّ به، ودفن فى إيمى، وحال الإنجليز أن يحصلوا على رأسه ليرسلوه إلى بريطانيا -كما فعلوا بالمهدى فى السودان- لكن أتباع الإمام أبقوا مكان قبره سراً.

وهكذا انتهت قصة هذا الجهاد الرائع الطويل الممتد لأكثر من عشرين سنة حاكيًا بطولة الإمام وأتباعه، وأن المسلم إن تعلق بالجهاد فإن أقوى القوى على ظهر الأرض ستقف عاجزة أمامه.

عوامل هزيمة الإمام:

هناك عدة عوامل تضافرت لهزيمة هذا البطل منها:

١- العلة الدائمة فى إفريقيا السوداء آنذاك وهى ضعف عقيدة الولاء والبراء عند كثير من المسلمين التى أدت إلى تعاون بعض زعماء المسلمين مع الكفار ضد المجاهدين، وهذه بلية كبيرة، وتمثل هذا فى حالة الصومال بوقوف زعماء هرر وهوبيا وميجرتين ضد الإمام، وبعض زعماء القبائل، وقد وشوا به عند البريطانيين ونصحوهم باعتقاله!! وقد تألبت كثير من القبائل عليه حتى اجتمع مرة ضده خمسون ألفًا منهم!!



٢- قِصَـر نظر بعض قادة المجاهدين الـذين استجابـوا لمكيدة الصليبـيين، وفتتـوا صف الجهاد بقبـولهم الذهاب إلى مكة، واستصدار مـا يضعف موقف الإمام أمام الصليبيين، وكان ذلك بسبب الأحقاد وسوء النظر.

٣- القوة الحـربية الهـائلة لدى الإنجليز خاصـة سلاح الطيـران الذى حسم المعركة فى النهاية، وتحالف الإنجليز مع الإيطاليين والأحباش ضده.

٤- استخدام الإمـام العنف فى بعض الأحيان ضد بعض زعمـاء القبائل مما أثار حفيظتهم، وجنح بهم إلى أعدائه، وكان لقلة الوعى فى القبائل أثر كبير فى معاداة الإمام.

٥- افـتقـاد الإمام الدعم مـن كل المسلمين خـارج الصـومال الذين كـانوا مشغولين بأنفسهم وأحوالهم فلم ينجدوه ولم يلتفتوا إليه.

٦- وجود الجواسيس والخونة فى صفوف الصوماليين، وكانوا يدلون الإنجليز على عورات جيش الإمام.

وقد دعا الإمام الصـوماليين إلى قتلهم، وما أشبـه صنيعهم هذا بصنيع العملاء والجواسيس والخونة اليوم فى فلسطين والعراق وأفغانستان.

٧- كان الإمام يتـبع الطريقة الصالحيـة الصوفية التى تلقـاها فى مكة، بينما كان أغلب مـشايخ الصـومال يتبـعون الطريقة الـقادرية، وهذا أدى إلى مناوئة المشايخ له وإضعـاف قوته ولو اجتمعـوا عليه لحصل خير كـثير، لكن ما العمل وهذه علة يعانى منها المسلمون فى كل زمان ومكان.



ومع كل تلك العوامل فقد كان لجهاد الإمام محمد بن عبد الله حسن أثر جليل، وتجلى فيه التالى:

١- قوة هذا الإمام وشجاعته وإباؤه، فقد تمالأت عليه قوى الإنجليز والإيطاليين والأحباش وطلبوا منه الصلح مرارًا، وخضعوا عنده، وفشلت خمس حملات حربية وُجهت إليه من أقوى قوة موجودة على ظهر الأرض آنذاك ورفض الاستسلام لهم حتى قضى نحبه عزيزًا كريمًا.

٢- إن المسلم الذى يعقد العزم على مواجهة الباطل وأهله يُحدث أثرًا عظيمًا فى أعدائه، ويحيرهم بصموده وعزته، وينفع الله به، فهذا الإمام جاهد أعداءه عشرين سنة فى أحوال لا تسعف، وأوقات الإدبار فى العالم الإسلامى لا الإقبال، ومع ذلك انظروا كيف استعصى على أعدائه ودوخهم.

٣- إن المسلم الصالح الملتزم بدينه الواعى لمتطلبات زمانه ذا العزيمة القوية هو العُدة الحقيقية لبلاده وقومه، وهو الأمل لهم بعد الله تعالى، أما ضعاف الإيمان والعزيمة والتطلعات فهم بلاء على أقوامهم وبلادهم، وقد ارتقى وعى هذا الإمام فى أحوال كثيرة، واستطاع أن يتعامل مع معظم القوى التى كانت حوله آنذاك بحنكة وحسن تدبير، وإن خانه التوفيق ففى أحوال قليلة.



٤- جمع الإمام بين التربية والجهاد والزعامة أى بين القوتين السياسية والدينية، وكان هذا أمرًا نادرًا فى زمانه، وكان من توفيق الله تعالى له، فقد يتيسر له شىء لم يتيسر لأكثر المصلحين فى زمانه وقبله وبعده.

٥- استطاع أن يجمع بين معظم قوى الشعب الصومالى ويوجهها لحرب أعداء الإسلام، وهذا -وإن كان فى مدة قصيرة ولم يَطُل- ولم يحدث فى الصومال قبله منذ زمن الإمام أحمد بن إبراهيم الذى ذكرت فى البداية.

٦- حارب العادات السيئة المتفشية فى الصومال مثل مضغ القات، والتدخين، وقام بمنع الاختلاط، وفرض الحجاب.

٧- اهتم بالنساء، وأصبح حجابهن وضبطه، وعلمهن فنون القتال حتى كان منهن عدة فارسات.

وفى النهاية أقول: إن الإمام المجاهد محمد بن عبد الله حسن يصلح أن يكون رمزًا للصوماليين اليوم، يستلهمون منه العزة والقوة والشجاعة والإباء حتى يقفوا أمام أعدائهم المتربصين بهم شرًّا اليوم، والله الموفق.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
السلسلة الثانية	٥
«رجل الحماسة والهمة» عبد العزيز الثعالبى	٧
«العالم المجاهد» محمد أمين الشنقيطى	٢٥
«القائد البطل» ساموري تورى	٣٣
«أمير البيان» شكيب أرسلان	٤٣
«المجاهد» عمر الفوتى	٦١
«الداعية الأديب» محمد البشير الإبراهيمى	٧٧
«المفسر العامل» أبو الثناء الآلوسى	٩٣
«المجدد السلفى» محمود شكرى الآلوسى	١٠٣
«الإمام المجاهد الصومالى» محمد بن عبد الله حسن	١١٧
الفهرس	١٤٣

